سلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية
يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

المنقذ من الضلال

لحجة الإسلام الغزالى

مع أبحاث مستفيضة عن : « قضية التصوف »

بقلم
الدكتور عبد الحليم محمود
رئيس قسم التوحيد والفلسفة بجامعة الأزهر

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
يناير ١٩٦٢

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة تيمور ٢٩ شارع الجيش

تصدير الطبعة الأولى

باسم الله نبتدىء هذه السلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية ، ومنه نطلب العون والتوفيق لتحقيق الهدف الذى نرمى إليه ، وهو العمل على نشر هذا النوع من الثقافة الذى لم يحظ بالعناية والتقدير ، على النحو الذى ينبغى أن يحظى به .

ومما يدعو إلى الأمل فى نجاح هذه المحاولة أننا نبدلها فى الوقت الذى أخذ فيه أبناء العربية يبعثون تراثهم الفكرى الضخم ، ويضيفون إليه الجديد ويطلعون على ما أنتجته قرائح الفلاسفة فى مختلف العصور والأمم .

إن حركة البعث التى بدأت لدينا فى أواخر القرن التاسع عشر أصبحت اليوم قوية الدعائم والأسس . وهى تؤذن أنها ستنقلب نهضة شاملة ، تؤتى أطيب ثمارها ، فقد بدأت الثقافة العربية تسلك سبلا شتى ، وتطرق آفاقاً مختلفة . وبعد أن كانت قاصرة — فى أول أمرها — على الدراسات الأدبية التى كانت تجد فيها من اليسر أكثر مما تلقاه من عناء ، اتجهت إلى الناحيتين : العلمية ، والعملية ، واستطاعت أن تسهم بجانب لا بأس به فى نهضتنا الكبرى ، ولكن تاريخ الفكر البشرى يذكرنا دائماً بأن الفلسفة والأخلاق كانتا — وما تزالان — رمزاً لكل نهضة ، وتاجاً لكل بحث علمى ، أو عملى ، ونبراساً يقود الباحثين أينما سلكوا ؛ فليست الفلسفة — كما يظن هؤلاء الذين لا تربطهم بها صلة محبة ومودة — نوعاً من الترف العقلى ، بل هى عنصر جوهرى فى تلوين كل ثقافة قومية بطابعها الخاص . وهى سبيل إلى تيسير فهم الثقافات القومية الأخرى . وليست فائدة فهم وجهة نظر الآخرين بالأمر الذى لا يحفل به ؛ إذ للفكر العالمى فى عصرنا

الحاضر روافد شتى تنتهى بأن تفيض فى كل مكان ، فتمحو الفروق ، وتنسف الحدود ، وتؤلف بين القلوب ، وتشحذ الهمم لإدراك ما تهفو إليه الإنسانية ، التى ما برحت تتلمس طريقها نحو الخير . والعزلة الفكرية — فى رأينا — أسوأ أثراً لدى الأمم منها لدى الأفراد . وهى دليل الجمود واليأس من كل إصلاح . وعلى الرغم من أن الأمة العربية لا يمكن أن توصف بأنها بمعزل عن التيارات الفكرية الكبرى ، فإنها فى حاجة إلى نفر يذكرونها بكبار أبنائها الذين وجهوا الثقافة العالمية عصوراً طويلة — إن فى الشرق وإن فى الغرب . وهى لا تضيق ، فيما نعتقد ، بمن يأخذ بيدها ، ليطلعها على روائع الفكر لدى فلاسفتها ، وفلاسفة غيرها من الأمم .

ونحن لا ندعى لأنفسنا أننا سنسد هذا الفراغ وحدنا . فما أبعد ذلك عن تفكيرنا ، لأننا نعترف ، دون تواضع كاذب ، أننا لن نقوم إلا بنصيب ضئيل من المجهود الضخم ، الذى يجب أن يبذل . ولكننا سنعمل ما استطعنا على إحياء التراث العربى الإسلامى ، وعلى التقديم بين يديه ، فى ضوء ما أدت إليه الدراسات العلمية والفلسفية ، متوخين السهولة فى العرض ، مع الدقه فى التحليل والنقد .

وستتسع هذه السلسلة أيضاً لإنتاج كبار الكتاب الفلاسفة ، فى كل أمة ، وفى كل عصر ، حتى تزود المكتبة العربية بمختلف الآثار الفكرية ، تأليفاً وترجمة : فى التصوف ، والدراسات النفسية ، والأخلاقية ، والفسلفية وستكون هذه السلسلة عقداً نسلك فيه درر الشرق والغرب .

وسيكون شعارها النهوض بمستوى هذه الثقافة لدى قراء العربية ، فى غير عسر ، والعمل على فتح سبل جديدة للتفكير الذى يرغب دائماً فى المعرفة الحقة .

ويسعدنا أن نفتتح هذا المجهود المتواضع بكتاب لأشهر مفكرى

الإسلام وأجلهم قدراً ، وأبعدهم ذكراً ، وهو كتاب « المنقذ من الضلال » للإمام « الغزالى » ، تصحبه مقدمة بارعة فى منطق التصوف ، للدكتور « عبد الحليم محمود » أستاذ الفلسفة ، بكلية أصول الدين ، بالجامع الأزهر وهو من خيرة شبان [1] فلاسفتنا ، الذين جمعوا — فى عمق وفهم — بين الثقافة الإسلامية الخالصة ، والثقافة الأوربية الحقة .

ونسأل الله التوفيق ، فى أداء رسالة نعتقد أنها دين فى عنقنا نحو هذه الأمة : فى ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها .

محمود قاسم

٢١ ربيع الأول سنة ١٣٧٢
الموافق ٩ ديسمبر سنة ١٩٥٢

---

(١) لم يعد فيما أظن الوصف بأنى شاب ينطبق على حالتى الراهنة : فقد اشتعل الرأس شيباً ، وتحددت الآمال والمطامح وكثر التفكير فى الآخرة ، وقل التفكير فى الدنيا ونسأل الله حسن الختام ، ونشكره ونحمده سبحانه على أيام وسنين تقضت فى كنفه ورعايته وفضله ونعمائه .

مقدمة

في

قضية التصوف

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا

— ١ —

البحث العقلى فيما وراء الطبيعة عبث

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث فى المغيبات ، ولكننا قد لا نعدو الصواب ، إذا قلنا : إنها نشأت منذ نشأة الإنسان ، على ظهر البسيطة .

وقد لا نعدو الصواب أيضاً ، إذا قلنا : إنها منذ النشأة الأولى ، قد اختلفت ، فيما يتعلق بمنهاج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة .

وقد كان الاختلاف شاملا لكل المساتير : فمن إنكار مطلق للألوهية ، وللروح ، إلى إيمان مطلق عام ، يغرق فى الوهم ، ويبعد فى الضلال ، حتى يصل إلى التخريف بأوسع معانيه .

وبين هذا وذاك ، مذاهب لا يحصيها العد : فمن تشبيه مطلق ، إلى تنزيه مطلق إلى تشبيه يشوبه التنزيه أو تنزيه مشرب بالتشبيه ، ومن حلول . إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد والمعبود ، إلى مذاهب يبعث اختلافها الدوار فى الرأس ، وتبعث براهينها الشك فى جميعها ، إلا من عصم ربى ، فوفقه إلى طريق الرشاد .

أجل : إلا من عصم ربى ؛ ذلك أن اتباع الطريق السوى ، توفيق من الله ، وليس هو من اكتساب العبد ؛ فالحلول — مثلا — عقيدة راسخة ، استساغتها البيئات المسيحية — وفيها من أساطين المفكرين ما لا يحصى — منذ ألفين من السنين . وقد تسابقت العقول فى البرهنة عليها ، حتى أقامتها على دعائم فلسفية ، منطقية ، خلبت عقول الملايين من بنى البشر ، فآمنوا بها ، وضحوا فى سبيلها .

والتشبيه قد برهن عليه ذووه ، ببراهين عقلية ، وأخرى نقلية .

ووحدة الوجود ،لها أنصارها المتحمسون لها ، الذين يرون أن ماعداها لغو ، أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل عقيدة قد سادت فى فترة من الزمن ، أو سادت فى بيئة من البيئات . وكل بيئة تعتقد أن مالديها خير ما أخرج للناس .

أما الصراع بين أدلة الفرق المختلفة، فهو صراع دام ، تتهافت فيه الأدلة، مثخنة بالجراح ، ولكنها تأبى ، فى غطرسة ، أن تعترف بالهزيمة ، فتأخذ فى تضميد جراحها ، لتعاود النزال من جديد ، ولتنهار - أيضاً - من جديد .

ولو سرنا حقيقة فى المنطق إلى غايته ، لو صلنا إلى الحيرة ، والشك ، فى كل ما أنتجته العقول الإنسانية من آراء .

* * *

ومع ذلك ، فاليقين موجود ، ومهما حاولت أن تنكر إشراق الشمس — إذا كانت مشرقة — فسوف لا يستجيب إليك شخص ما ، وسوف لاتستجيب أنت إلى نفسك . وهكذا الأمر فى جميع المحسوسات .

بيد أن ذلك ميدان ، والمغيبات ميدان آخر .

ربما يقال إنه من الطبيعى : أن يكون الحس طريقَ المعرفة المادية ، وأن يكون العقل طريقَ المعرفة العقلية .وما دامت المغيبات من المعقولات، فالطريق إلى معرفتها ، إذاً إنما هو العقل ، وما دمنا قد وثقنا بالحس فى معرفة الماديات ، فلنلتزم الوثوق بالعقل فى معرفة المغيبات

هذا النمط من التفكير يبدو موفقاً ، ولكنه محض سفسطة : فالتصور - وهو أساس المعقولات - لايقوم إلا على الحس ، وإذا جردته من المدركات

الحسية، فقد أزلته إزالة لا تترك له من أثر . ومهما أغرق الشعراء فى الخيال، ومهما أبعدوا فى الوهم ،فابتداعاتهم ،وصورهم المبتكرة ، منتزعة من الواقع . والاختراع : تنسيق للمحسوس على نمط جديد ، ولا فرق مطلقاً ، بين ذهن العبقرى الفذ ، وذهن الجاهل الغبي ، فى أن كلا منهما يعتمد على الواقع المحسوس ، فى تصوره ، وفى تخيله .

والصورة المبتكرة ـ من حيث عناصرها ـ أسطورة من الأساطير ، أو وهم من الأوهام التى لا وجود لها . وما دام الأمر كذلك ، فالتفكير المجرد عن المحسوسات معدوم[1] . وما دامت المساتير لا شأن لها بالحس ، فكل تفكير فيها لا يؤدى إلى نتيجة .

---

(١) منذ سنوات كتبت بحثاً عن التخيل ، أقتطف منه ما يلى ، توضيحاً لفكرة ارتباط التصور والتخيل بالمحسوسات .

ا — الخيال والواقع : إذا نظرنا إلى العناصر التى تكون مادة التخيل ، فإننا لا نجد فيها شيئاً جديداً ؛ وكل ما المتخيل لا يعدو أن يكون تنسيقاً : فصورة أبى الهول هى وحدها الجديدة ، أما ما تكون منه — نعنى جسم الأسد ورأس الإنسان — فليس ذلك بجديد .

وكل ما لم يخضع لحواس الإنسان فإنه لا يمكن للانسان أن يتخيله إلا إذا شبهه بما وقع تحت حواسه ، وما تصور الناس الغول والعنقاء والجن والشياطين إلا على مثال ما رأوا .

وحينما أراد المسيحيون أن يصوروا جبريل ، صوروه على صورة رجل بجناحان .

وتورع جمهور المسلمين فيما يتعلق بالله فقالوا : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » إذ أن كل ما خطر بالبال لا يمكن إلا أن يكون محسوسا ، وكمال الله يقتضى تنزيهه .

أما هؤلاء الذين قصر تفكيرهم فإنهم تخيلوا الله — جل وعز — على صورة رجل ضخم .

لقد أطال العلماء فى بحث الآراء الموضوعية ، والآراء الذاتية ، ورأوا

= ولعل الكثير قد قرأ حكاية ذلك الرجل الساذج ، الذى حضر مجلساً من مجالس المعتزلة فسمعهم يتحدثون عن الله ويقولون : « إنه سبحانه ليس بفوق ، ولا بتحت ، ولا بيمين ولا بشمال ، ولا بخلف ، ولا بأمام ، وليس بمادة ، ولا بعرض ، فخرج ثائراً يعلن أن : « هؤلاء قوم يريدون أن يقولوا : أن ليس فى السماء إله » . هذا الرجل الساذج لم يمكنه أن يتخيل موجوداً خاليا من المحسوسات ولم يمكنه أن يعقل مالم يتخيله ، فاعتقد : أن المعتزلة ينكرون الله .

هذا وحاول أن تتخيل أنت ما فى الجنة « مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت » فإنه سوف لايخطر لك على قلب ؛ ذلك أن ما يخطر على القلب ليس شيئا آخر غير ما رأته العين ، أو سمعته الأذن .

ثم إذا كنت قدقرأت ماقيل عن مدنية المستقبل ، وما كتب عن المدينة الفاضلة فقد رأيت أنه — رغم إرادة الإغراب أو التجديد لم تخرج تلك المدينة عما رأيته ، سوى أنه مكون تكويناً جديداً .

لايخرج الخيال إذاً فى عناصره عن الواقع ، ولا يمكن للإنسان أن يتخيل إلا المحسوس .

(ب) التخيل والبيئة . إذا قرأت تشبيها للعاب المرأة بماء غير آسن ، وللشيئين المتشابهين بأنهما كخفى بعير ، فلا أظن أنه من العسير عليك أن تعلم الموطن الذى نبع منه هذان التشبيهان ، وربما تكون قد قرأت ما أجاب به ابن الرومى ، حينما عاب عليه بعضهم بأنه لا يتخيل كتخيل ابن المعتز ؛ ضاربين له مثلا ، تشبيه الهلال « بزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر » فأجاب هذا يصف آنية بيته .

وأظنك تقر معى أيضاً أن البيئة العلمية فى العصور الوسطى لم تكن تسمح باختراع الراديو فلم يخترع .

هذا وكثير غيره يرشدنا إلى ما للبيئة من أثر على التخيل ، وأن كل إنسان يتأثر تخيله بما فى بيئته من صور طبيعية ، ومن ثروة ثقافية .

والأمر لايقتصر على ذلك ، بل يتغير تخيل الشخص بتغير بيئته .

وكلما كثرت المثل العليا فى بيئة ، وكلما سمت موازينها الأخلاقية ، كلما كثر الرشد فيها ، وابتعد الخيال عن دائرة الآثام .

أن الأولى لا تقبل جدلا : ذلك لأنها تعتمد — الاعتماد كله — على الحس ، أما الآراء الذاتية — وهى قائمة على أسس أخرى — فإنها مجال للأخذ والرد ، ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة مهما طال النقاش .
وإذا كانت مادة الأخلاق ، هى الميدان الخصب للآراء الذاتية ؛ فإن الإلهيات وهى حجب ومساتير — ميدان أخصب : لذلك لا يعدوا البحث فيها أن يكون « علماً كلامياً » ، أو « علماً جدلياً » .

ومهما أشاد المعتزلة بالعقل ، ومهما رفعوا من شأنه ، فمن البديهى : أن الميدان الذى يتخبط فيه العقـــل تخبطاً لا نهاية له ، إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة .

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة على على ما فيه من روعة ، ودقة ، وجمال ، وعلى ما أداه من خدمات جليلة ، فى ميدان المنطق الدينى ، لا يقوم على أساس « معقول » .

* * *

قد تقول : إن العقل — وهو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب العقليين عموماً — لا مقاييسه ، وله موازينه التى لا يتطرق إليها الخلل . إن المنطق القديم منه والحديث ، آله تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى التفكير .
ولقد جاهدت الإنسانية جهادا طويلا ، حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال ، وللتفرقة بين العماية العمياء ، والصواب الأصوب .

فالاستقراء والقياس — إذاً — هما وسيلة العقل ، وهما فيصل التفرقة بين الغى والرشاد . فمن التجنى على المعتزلة وعلى العقليين — وقد اعتمدوا عليهما — أن نصم مذاهبهم بمجافاتها للطريق الأقوم .

إن وجهة النظر هذه تبدو وكأنه لا غبار عليها . بيد أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل ، وتنهار .

أما أولا : فلأن المعتزلة أنفسهم ، والعقليين عامة — مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس — قد اختلفوا فرقاً وأحزاباً لاتحصى،وكل فرقة أوشيعة تتبع رئيساً وصل به «استقراؤه» ووصل به «قياسه» إلى نتائج معينة ، تختلف — فى قليل ، أو فى كثير — عن نتائج استقراء آخر ، وقياس مختلف.

وأما ثانياً : فلأن الفكرة — المنطق يعصم الذهن عن الخطأ فى التفكير ، أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح — فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقة ، وذلك يحتاج إلى تبيان .

إن المقاييس هى كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء — وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية — فإنه :

١ — مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسوسات، إنه تتبع جزئيات ، لاتخرج عن نطاق الواقع ، أما المساتير فهو برىء منها كل البراءة ، إنها لا تدخل فى دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ — ثم إن الاستقراء : تام [1] ، وناقص . والتام — كما يعترف المناطقة — لا غناء فيه ، ولا فائدة منه .

أما الناقص — وهو المهم فى نظرهم فإنه — فى رأيهم أيضاً — ظنى ، وهو — لذلك — عرضة للتغيير ، فى كل آونة .

«كل معدن يتمدد بالحرارة» تلك قضية من قضايا الاستقراء . إنها قضية

---

(١) «الاستقراء : وهو حكم على كلى لوجوده فى جزئيات ذلك الكلى ، إما كلها : وهو الاستقراء التام الذى هو القياس المقسم ، وإما أكثرها : وهو الاستقراء المشهور ، ومخالفته القياسى ظاهرة ، لأنه فى القياس يحكم على جزئيات كلى لوجود ذلك الحكم فى الكلى ، فالكلى يكون وسطا بين جزئية ، وبين ذلك الحكم الذى هو الأكبر ، وفى الاستقراء يقلب هذا فيحكم على الكلى بواسطة وجود ذلك الحكم فى جزئياته» ، عن «البصائر النصيرية» .

عامة ، شاملة ، ولكن المعادن لم تكتشف — بعد — بأكملها ، ومن الجائز أن يكتشف فى الغد معدن لا يتمدد بالحرارة . إنها — إذاً قضية مؤقتة ، ظنية ، تتبرأ من اليقين الفلسفى .

يقول الدكتور طه حسين بحق « والعلم لايعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله . وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها »[1] .

وهكذا قضايا الاستقراء . إنها :

١ — خاصة بالطبيعة ، ولا شأن لها بما وراءها .

٢ — ظنية ، لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ — فإنه مبنى على الاستقراء ، إذ هو منطو دائماً على كلية ، كلية استقرائية ، وما دامت قضايا الاستقراء ظنية — كما رأينا — وميدانها المحسوسات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسوسات .

٢ — ثم إن المناطقة لايشترطون فى مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة ، صادقة فى نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب . وقد تكون — كما يقول : صاحب البصائر النصيرية ، « منكرة ، كاذبة فى نفسها » وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ، ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ ماقيمته إذا كان لا يعول فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟ ماقيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها ؟

---

(١) مقدمة فجر الإسلام .

إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدى إلى الاستقلال الفردى ، وكل ما يؤدى إلى الاستقلال الفردى مضر بالمجتمع ؛ فالكثير من العلم مضر بالمجتمع . كان هذا قياساً صحيحاً فى نظر المناطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدى إلى التماسك الاجتماعى ، وكل ما يؤدى إلى التماسك الاجتماعى مفيد للمجتمع ؛ فالكثير من العلم مفيد للمجتمع — كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناطقة ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

٣ — ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى فاسد ؛ ذلك أن العلم بالنتيجة فى نحو قولنا : « محمد إنسان ، وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق » متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ؛ لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنسانى ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد . ولو كنت فى شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم بالناطقية على جميع أفراد الإنسان . وإذاً تكون الكبرى متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالا دورياً فاسداً ، فلا يعول عليه .

٤ — وأخيراً ، فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة ؛ إنها استنتاج مجهول — هو النتيجة — من معلوم ، هو المقدمات .

ولكن النتيجة متضمَّنة فى المقدمات ، إنها ليست مجهولة ، والقياس لا يؤدى ، إذاً ، إلى معرفة جديدة . أو إلى استنتاج مجهول من معلوم . إنه — إذا أردت الدقة — استنتاج معلوم من . . . . . معلوم .

تلك هى موازين العقل — وسنزيد الأمر — أمر قصور العقل — إيضاحا فى فصل تال — وهى موازين لا غناء فيها ، ولا جدوى منها .

العقل إذاً قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحدثت فى التشريع ، فإن التشريع داخل فى نطاق الأخلاق .

بيد أن الأديان إذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً فيما يتعلق بتحديد الخير ، والشر ، فإنها فى المغيبات ، لم ترهق الإنسان من أمره عسراً ، فتوضح له ماليس فى مقدوره إدراكه ، أو تبين له ما يسمو عن التبيان .

أما هذا الذى يسمو عن التبيان ، فإنه ذلك النوع من المعرفة الذى لا يدخل فى نطاق المحسوسات ، وبالتالى لا يدخل فى نطاق العقليات أعنى المساتير .

وإنه ليعجبنى فى هذا المقام قول ابن « عبد البر » المتوفى سنة ٤٦٣ هـ : « إن الله ليس كمثله شىء : فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر » .

لذلك رسمت الأديان فى هذا المحيط إطاراً عاماً فقط ، وهذا الإطار العام نفسه مبنى بعضه على الحس ، وهو داخل فى نطاق الآيات المحكمات التى هى أم الكتاب : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

والعامى يقول ، عن مشاهدة ، « المركب اللى فيها ريسين تغرق » .

أما بعضه الآخر فهو المتشابهات « فأمَّا الذين فى قُلوبِهم زَيْغٌ فيَتَّبِعونَ ما تَشَابهَ مِنه ، ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تأويلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا الله ، والرّاسِخون فى العِلْمِ يَقُولون آمَنَّا بِه ، كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » .

وحكمة قدماء المصريين دقيقة كل الدقة إذ تقول : محال على من يفنى ، أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لا يفنى » .

رسمت الأديان إطاراً عاماً ، ولكن هذا الأطار لا يرضى النفوس الطلعة ، التى أبت — خطأ — أن تعترف بحدود للعقل ، أو بقصور فيه ،

فبحثت داخل هذا الإطار وخارجه ، فكان ما كان من تشعب ، وفرقة ، واختلاف .

إننا لانشك فى أن رؤساء الفرق الإسلامية — معتزلة كانوا أم أشاعرة ، وشيعة كانوا أم سلفيين — قد تشبعوا بإيمان راسخ ، وحرارة دينية فائقة ، وعقيدة لا تزعزعها الأعاصير .

وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة : كتاب الله ، وحديث رسوله.

فلم كان الاختلاف ؟ ولم هذا التشعب الذى لا ينتهى ؟

لسنا — فى تعليل ذلك — أمام مشكلة لا تحل ، إذ الشأن فى ذلك إنما هو الشأن فى كل الآراء الذاتية ، التى لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصى وحده.

ولو استقامت أمور المسلمين الدينية ، لما حادوا عن موقف الإمام مالك : التسليم المطلق « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

* * *

آراء ذاتية ، داخل الإطار العام ، آراء هى من صنع البشر ، آراء تتحد فى نسبتها — من حيث القرب والبعد — إلى النصوص المقدسة . « إنها آراء »

بيد أن النزعة التى صدرت عنها هذه الآراء — الاستعداد الشخصى — نزعة مفرقة .

ثم إنها آراء غير مفهومة ، وكل من عالج — فى إخلاص — تصور صفات خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هى الذات ، فإنه يقر معنا أن ذلك إنما علمه عند ربى .

إن الطريق الأقوم — إذاً — هو التسليم المطلق ، وهذا هو الإيمان بمعناه الصحيح . يقول الإمام الغزالى :

« والتحقيق بالبرهان علم ، . . . . والقبول مع التسامع والتجربة بحسن الظن : إيمان » .

ولكن ذلك ليس معرفة مباشرة .

لاشيء إذا مما سبق من وسائل المعرفة يصل بنا إلى المعرفة المباشرة فى محيط ما وراء الطبيعة : وتلك هى النتيجة التى نريد من كل ماسبق الوصول إليها ،

وإذا أردنا تلخيص مانريد أن ننتهى إليه قلنا :

(١) الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المغيبات ؛ فإننا لا نحسها .

(٢) العقل وهو مبنى على الحس — قاصر كذلك .

(٣) النصوص الدينية لاتؤدى بنا إلا إلى نوع من المعرفة غير المباشرة ، أو إلى التسليم ، أو التفويض ، وليس ذلك من المعرفة المباشرة فى شىء .

وإذا ؛ فعلم الكلام ، الذى لايسير على نهج سلفى — وهو آراء من صنع البشر — ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة ، وهو عبث ، وهو انحراف عن السبيل السواء .

قال الإمام مالك : الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه . نحو الكلام فى رأى جهم ، والقدر ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل .

وقال الإمام أحمد : لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل .

وقال الامام مالك : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟

* * *

هل معنى ذلك أن المعرفة فيما يتعلق بالإلهيات غير ممكنة ؟

هل معنى ذلك أن الغطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنه لاسبيل إلى المعرفة الحقيقية المباشرة ؟

ذلك ما لا نقول به .

ما السبيل إذاً إلى المعرفة . . . ؟

— ٢ —

فى وسيلة المعرفة

سيدنا رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — معجزة التاريخ ، وهو المنارة الذى يهتدى بها الإنسان كلما انبهمت الأمور ، أو ضلت الآراء .

وحياته قبل البعثة — كحياته بعدها — عظة وعبرة ، وهداية ، ومثل أعلى لمن أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته — صلوات الله عليه — قبل البعثة ، ولا يكون عنده فكرة صحيحة عن النبوة من حيث إنها لا تكتسب اكتساباً ، وإنما توهب من الله تعالى — يكاد يعتقد أنه اقتنص الوحى اقتناصاً ، واضطره إلى النزول اضطرارا ، وأنه أبى إلا أن يظفر بما يريد ، فكان له ما أراد .

بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله على العالمين ، عندما حان الموعد الذى حددته العناية الإلهية لتتجلى عن طريق من اختارته رسولا .

يقول الإمام المراغى رحمه الله : « النبوة هبة لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها ، القادر على حملها « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ومحمد ﷺ أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه ، أحمره وأسوده ، إنسه وجنه .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .

ولأن يختم به الأنبياء والرسل ، وليكون شمس الهداية وحده ، إلى أن تنفطر السماء ، وتنكدر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات[1] اهـ

---

(١) من مقدمة « حياة محمد » للدكتور هيكل .

أما هذا الاعداد ، فقد حاطه الله بعنايته التامة ؛ إنه أعده من ناحية أسرته : أعني من ناحية الوراثة ، وأعده فمن ناحية فطرته : أعني طبيعته الشخصية .

أما من ناحية أسرته ، فهذا جده عبد المطلب يقول فيه الدكتور طه حسين — وهو في هذا ليس أديباً ممتازاً فحسب وإنما هو مؤرخ مُلْهَم — : «كان عبد المطلب سمح الطبع . رضى النفس ، سخى اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضا قوى الإيمان ، تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه ، نزعة دينية ا حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ، ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فهماً ولا تفسيراً » . . .

« كان فتى من فتيان قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش .

فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة ، لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة في الدين ، قلما كانوا يرضونها ، أو يبسمون لها .

على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز ، فلم يكن يصدر في حياته كما كانوا يصدرون ، عن الروية والتفكير ، وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه إلى العمل ، والاضطراب في الحياة قوة خفية ، يحسها ، ويأبى عليها ، ويغلو في الإباء ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ، ويصدع بأمرها .

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل حيناً ، وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافا ، ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حيناً آخر شخصاً ، واضح المخايل ، بين الصوت ، يلم به إذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتي كذا وكذا من الأمر .

وكان في هذا الصوت غموض ، وكان في هذا الصوت إبهام ، وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام . وكان الفتى ينكره ،

ويرتاع له ؛ وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه، وكان الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به فيكثر الإلمام. ولم يكن هذا الصوت يقع فى أذن الفتى بألفاظ كالتى تقع آذان الناس ، إنما كان يصطنع ألفاظا خاصة ، غريبة الجرس ، غريبة المعنى »[1] اه .

أما والده — عبد الله — فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، وكان شعاره « أما الحرام فالممات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : إنى لأعرف فيك نسك أبيك .

قبيلته قريش ، وأسرته بنو هاشم ، وجده عبد المطلب ، سيد قريش إذ ذاك ، ووالده عبد الله : فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه تعالى اصطنعه لنفسه ، قبل أن يختاره . أجل ! وهذه الفترة من حياته التى سبقت البعثة ، كانت فترة جهاد ، وصراع روحى هادئ أشد الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه الخوف ، وفيه الرجاء وفيه الكثير من الأمل الوثاب ، الذى يشحذ العزيمة ، ويسد على اليأس القانط كل منفذ . إن هذه الفترة من حياته كانت على — حد تعبير الجنيد فى تعريف التصوف — عنوة لا صلح فيها .

كان صلوات الله عليه ، يتوج كل عام ، جهاده الروحى المتصل ، بشهر يقضيه فى غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق ، أو شبه المطلق ، عن كل ما سوى الله ، وهناك ، فى سجوة الليل ، أو فى رائعة النهار ، يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير ، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب ، فيصل إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين ، أو أدنى ، حتى يشاهد الجمال فى سنائه ، والجلال فى عظمته ، وكبريائه ، وجلاله .

ها هو الرسول ، يبذل مجهودا جبارا ، لايكاد الإنسان يتصوره ،

---

(١) « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين .

فضلا عن أن يأتى بمثله . وها هو ذا ، يرى الهدف بعيدا لا يكاد الإنسان يفهمه ، فضلا عن أن يصل إليه . وها هو ذا ، يرى الطريق وعثاء ، صعبة المرتقى . . . . بيد أن ذلك كله لم يكن إلا ليزيده عزما على عزم ، وإرادة على إرادة ، ونشاطا مضاعفا ، إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الرسول عن جهاد النفس ، لتتزكى .

وتمضى السنون ، بطيئة سريعة فى آن واحد ، وجهاد الرسول لا يفتر ، حتى أصبح ، أو كاد ، روحا خالصة ، أو قبسا من نور الله ، وانتهى به الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام الغزالى إنه : « أول حال رسول الله عليه السلام ، حين أقبل على جبل حراء ، حيث تبتّل ، حين كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد حتى قالت العرب : « إن محمدا عشق ربه ! » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التى غيرت مجرى التاريخ :

« إقرَأْ باسمِ رَبِّكَ الذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إقرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ، الذِى عَلَّمَ بالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإنسانَ مَالمْ يَعْلم » .

يقول الدكتور هيكل : « وجد محمد فيه (فى التحنث) خير ما يمكنه من الإمعان فيما شغلت به نفسه ، من تفكير ، وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة ، يلتمس أثناءها الوسيلة إلى مالم يبرح شوقه يشتد إليه ، من نشدان المعرفة ، واستلهام مافى الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل حراء — على فرسخين من شمال مكة — غار ، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان ، من كل سنة ، يقيم به مكتفيا بالقليل من الزاد يحمل إليه ، معنا فى التأمل ، والعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتمسا الحق ، والحق وحده . ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة ، حتى لكان ينسى نفسه ، وينسى طعامه وينسى كل مافى الحياة ؛ لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله ليس حقا . . . . . .

«وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى حراء يتحنث ، وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى فى رؤياه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الباطل كله ، وقد أدبه ربه، فأحسن تأديبه ،وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة ، وقد اتجه إلى الله بكل روحه ، أن يهدى قومه ، بعد أن ضربوا فى تيهاء الضلال .وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ، ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم . وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ، ليعود فيمتحن مايدور بذهنه ، وما يتبين له فى رؤاه. ولقدطالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على مايرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوج المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدر بخاطرها ، ولا بخاطره أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية ، إلى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحى الأول ، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة .

وفيما هو نائم بالغار يوماجاءه ملك وفى يده صحيفة، فقال له: «اقرأ».[1]

* * *

هذه الحياة التى هداه الله لها — لا علم الكلام ولا الفلسفة العقلية — هى التى رسمت لنا الطريق إلى الله: طريق الكشف، طريق الإلهام، طريق البصيرة ، بل طريق المشاهدة ، على ما يرى الصوفية .

وهذه الحياة التى عُلِّمناها عن الرسول إجمالا ، قد فصلها الصوفية أدق تفصيل ، وبينوها بياناً « سيكولوجيا » غاية فى الإحكام: يتدرج مع الإنسان خطوة خطوة ، حتى يصل به إلى درجة — لا نقول إنها النهاية ؛ إذ ليس لمعرفة الله نهاية — يكون ما بعدها بعيداً كل البعد عن إدراك الطبائع البشرية

---

(١) من « حياة محمد » للدكتور هيكل .

العادية ، فلا يمكن التعبير عنه بلسان المقال .

وهذا الطريق سماه الصوفية : معارج القدس،وسموه : منازل السالكين، ومدارج السالكين ، ومنازل الأرواح،وهو عبارة عن المقامات والأحوال التي يسلم كل مقام منها إلى ما بعده، وكل حال منها إلى الذى يليه ، حتى يصل الإنسان إلى القرب،والمشاهدة،ويستغرق فى ملكوت،يسمو على الوصف.

يقول الإمام الغزالى : « ومن أول الطريق تبتدىء المكاشفات ، والمشاهدات ، حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد.ثم يترقى الحال،من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

— ٣ —

حول كلمة : تصوف

١ — يروى عن أفلوطين : أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه كفرد ، ولو أمكنه أن يلغى سيرته الشخصية من أذهان الناس ، ولو أمكنه أن يلغى اسمه ، لفعل ، راضيا مغتبطا ، ذلك أن التسمية ، والجانب الشخصى الفردى فى الإنسان لا قيمة لهما ، إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

ومما يتلاءم مع هذا الاتجاه ، قول بعض الصوفية ما معناه : إن طائفة الصوفية لو تنزهت عن الفردية والشخصية ، لنزههم الله عن التسمية تنزيها مطلقاً ، ولكن لما شابت الفردية أعمالَ بعضهم ، وُضع لهم اسم ، واندرجوا تحت عنوان : الصوفية .

هذا الاسم الذى أطلق عليهم اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه . ولم ينته الرأى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التى قيلت ، وأطرفها : ماذكره البيرونى : من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف للكلمة : « سوف » اليونانية ، التى تعنى الحكمة . يقول البيرونى : إن من اليونانيين « من كان يرى الوجود الحقيق للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه ، وحاجة غيرها إليها ، وأن ماهو مفتقر فى الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأى السوفية ، وهم الحكماء ، فإن « سوف » باليونانية الحكمة ، وبها سمى « الفيلسوف » بيلاسوبا أى محب الحكمة .

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ؛ سموا باسمهم .

ويرى البيرونى أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك ، فقال : مفسرا

ومعللا : ولم يعرف اللقب بعضهم ، فنسبهم — للتوكل — إلى الصفة ، وأنهم أصحابها فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم صحف بعد ذلك فصير : من صوف التيوس . . . »

ورأى البيرونى هذا ، على طرافته ، لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية بالصوفى كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية.

فالبيرونى يقول صراحة : « ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم » .

ورأى البيرونى ، إذن لا يستقيم ، إلا على أن هذا اللفظ نشأ فى الإسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية ، وعرف معناها ، وتداولتها الألسنة ، ولاكتها الأفواه ، وألفت معناها العقول ، أى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، على أقل تقدير . مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت فى العهد الجاهلى ، على ما يرى صاحب اللمع .

ولكن إذا كان رأى البيرونى لا يستقيم ، فإلام نتجه فى إشتقاق هذه الكلمة ؟ إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان ، وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً ، رأياً ، وينقضها جميعاً.

١ — فأما قول من قال : انه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه .

ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

٢ — ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ .

فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى .

٣ — ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة .

٤ — وقول من قال : إنه مشتق من الصف ، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح .

ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية ينتقد كل هذه الآراء ، فإنه إذن ، لا يرى الاشتقاق ، ويقول : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة صوفية ؛ ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجماعة المتصوفة .

وليس يشهد للاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب .

لقد استعرضنا الآراء التى قيلت فى هذا الموضوع قديماً فهل ، ياترى ، هناك من جديد ؟

٢ — ما رأى الباحثين الحديثين فى أصل كلمة : « تصوف » ؟

يقول الشيخ عبد الواحد يحى :

أما أصل هذه الكلمة : « صوفى » : فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة .

إنها فى الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف : « الحكمة الإلهية » فيكون الصوفى الحقيق ، إذن ، هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه : « العارف بالله » ، إذ أن الله لا يعرف إلا به .

وتلك هى الدرجة العظمى « الكلية » فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

وقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحى فيما نعلم ، بهذا الرأى ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولكنه لا يمكن أيضا أن يؤيد بالأدلة

المنطقية ، يستسيغة قوم دون برهان ، وينفر منه آخرون من غير ماحجة .

وإذا تركنا الشيخ عبد الواحد لننظر إلى الباحثين فى هذة اللفظة فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لها .

يجارى فريق منهم أبا الريحان البيرونى ، فى أنها مأخوذة عن أصل يونانى ، هو كلمة : « سوفيا » اليونانية .

وقد قال بهذا الرأى « فون هامر » من المستشرقين .

واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين .

وأيده فى حرارة محمد لطفى جمعة .

أما السبب الذى جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ، فهو . أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية وينسبها إلى الظاهر والشكل وعلى حد تعبير محمد لطفى جمعه : « يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام ، من صفة الحكمة والفضيلة » .

وقد بينا رأينا فى هذا الموضوع فيما مضى ، ونقول الآن :

إن أصحاب هذا الرأى يعطون قوة وتأييدا لمن يزعم أن التصوف الإسلامى وليد الفلسفة الأفلاطونية وهو رأى باطل .

ولقد هاجم الدكتور زكى مبارك هذا الرأى فى قوة وفى منطق سليم .

لقد كان العرب — حسبما يرى — مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان « التصوف » من « سوفيا » لنصوا عليه فى كثير من المؤلفات .

ثم أن كلمة « سوفيا » اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت « الفلسفة » عند اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء . وقد ترجمها العرب : فسموا الطب : « الحكمة » وكلمة : « حكيم » لا تزال تؤدى معنى كلمة : « طبيب » . والفلسفة نفسها سماها العرب : « الحكمة »

وقالوا : تاريخ الحكماء . فهم عرفوا من سوفيا «الفلسفة والطب» . أما الحكمة الروحانية : فمن البعيد أن يكونوا لحوها ، لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان .

ثم يقول الدكتور زكى مبارك ، فى ظرف ظريف ، وفى صورة من الجد. هى تعبير ، أبلغ التعبير ، عن التهكم والسخرية : على أنه ، ما الذى يمنع أن تكون «سوفيا» بمعنى الحكمة الروحانية ، جاءت من كلمة : « صوف » ، وهى قديمة فى العربية ؟

أن التصوف قديم جدا عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس الصوف كان علامة التقشف ، فليس من المستبعد أن ترحل كلمة . «صوف» إلى معابد اليونان .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأى ، على حد تعبير الدكتور زكى مبارك « ليس إلا ضربا من الإغراب » .

أما الفريق الثانى من الباحثين الحديثين — وهم أكثرية — فإنه يرى أن كلمة « تصوف » مأخوذة من « الصوف » .

٣ — إننى أرى — كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين — أن لفظة « التصوف » تنتسب إلى الصوف . وكما أنه يقال تقمص إذا لبس القميص — كذلك يقال تصوف إذا لبس الصوف . ومن أبرز القائلين بهذا الرأى المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والمرحوم الدكتور زكى مبارك ، والمستشرق مرجليوت .

وإذا كانت هذه الكلمة تنتسب إلى الملبس — وهو مظهر وشكل ورسم فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .

وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلى للاسم هو المراد مما وضع الإسم له ، إذ المعنى الأصلى قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه . ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا

التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين كثيراً مايجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلى للاسم وما وضع الاسم له . أو بين الإسم والمسمى . ولكن ذلك ليس مطرداً .

والواقع أن التصوف أصبح معنى معروفا لا شأن له بالمظاهر والاشكال .

وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون فى قيمته أو فائدته فانهم لا يتخذون التسمية تكأة لهذه المماراة . ولو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن سمت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية من الساخرين .

على أننى أرى ، كما يرى كثير غيرى ، وكما يثبت التاريخ ، أن هذه الكلمة « تصوف » لم توضع فى الأصل للتصوف بمعناه العادى الذى نفهمه الآن ، وإنما وضعت فى المبدأ ، لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا : إنها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

إن العزوف عن الدنيا عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس تمشيا مع فكرة دينية وإرضاء لشعور تنسكى .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين ترهبوا ابتغاء رضوان الله .

ويتمذهب بها بعض الناس ارضاء لفكرة منطقية ، واتباعا لمذهب عقلى يرى السعادة فى الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات والبعد عن الشهوات وذلك هو الزهد .

وسواء أكان العزوف عن الدنيا دينا أم كان منطقاً . فانه موجود منذ أقدم العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان فيها .

والمنطق صاحب الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد — من ناحية الملبس — فى الصوف مايحقق اهدافهم التى تتصل بالتقشف والشظف والخشونة ، فهو متين رخيص

خشن لا يحتاج الإنسان معه فى الشتاء إلى غيره ، ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً ذلك أنه لا يبلى بسرعة فتصوفوا : أى لبسوا الصوف . وكان لا بد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم صوفية واطلق الإسم مصادفة ، أو تعمداً : فذاع وشاع ، وأصبح الزهاد يعرفون — فى البيئات العربية — باسم الصوفية .

هؤلاء الزهاد كانوا موجودين فى العصر الجاهلى تديناً أو منطقاً ، وكانوا موجودين فى صدر الإسلام تدينا أو منطقاً ، حتى إذا كانت رابعة وكان الجنيد وكان ذو النون . . . حتى إذا وجد التصوف بمعناه الحقيقى وكان ممثلوه عازفين عن الدنيا لابسين للصوف أطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف ، ولم يثر الصوفية على التسمية فى حد ذاتها . ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ذهب فى نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الصوف فهى كلمة موفقة كل التوفيق ولعل عناية المقادير هى التى هيأت لها الجو للظهور والشيوع — إذ أنها تمت بصلة حرفية نغمية جرسية إلى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة »

والصف « الصف الأول فى الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس » .

والصفة « صفة مسجد رسول الله التى كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم لله وللجهاد » والصفة « الصفة الجميلة » .

وسوفيا اليونانية التى تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص » .

وكان من التوفيق أيضاً هذا الغموض نفسه فى أصل الكلمة ، فما من شك فى أن اختلاف المذاهب والآراء فى أصلها يبين الكثير من معانى التصوف ومن مظاهره . والله ولى التوفيق .

— ٤ —

التصوف[١]

الشريعة والطريقة والحقيقة :

ربما كانت العقيدة الإسلامية — من بين العقائد الموروثة — هى العقيدة التى يظهر فيها بوضوح ، التفرقة بين جزأين كاملين ، هما « الظاهر » و« الباطن » أعنى :

« الشريعة » وهى الباب الذى يدخل منه الجميع .

و« الحقيقة » ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار .

وهذه التفرقة ليست تحكمية ، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت ، وبعضهم معد بفطرته لمعرفة الحقيقة .

وكثيراً ما تجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة ، بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها .

والشريعة تتضمن — فضلا عن الناحية الإعتقادية — الناحية التشريعية، والناحية الإجتماعية ، وهما جزآن لا يتجزآن عن الدين الإسلامى : إنها — أولا وقبل كل شىء — قاعدة للسلوك .

أما الحقيقة ، فإنها معرفة محضة ،

على أن « الباطن » لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبل الموصلة إليها ، أعنى : الطرق ، التى تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة .

(١) هذا الفصل لخصناه عن بحث للعارف بالله المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى ، وقد كتبه بالفرنسية ، ونشر فى مجموعة « الإسلام والغرب » سنة ٤٧ . وقد نشرنا البحث كاملا فى كتابنا : « الفيلسوف المسلم » الذى تحدثنا فيه عن حياة الشيخ عبد الواحد ، وعن بعض آرائه .

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هى الخط الذاهب من الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على الدائرة هى مبدأ الخط . وهذه الخطوط التى لا تحصى ، تنتهى — كلها — إلى المركز ؛ إنها « طُرُق » ، وهى طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية ؛ ولهذا يقال « الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد ؛ لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة .

على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ ، تزول شيئاً فشيئاً ، مع زوال الإنِّيَّة ، وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا ، تزول فيها « صفات العبد » التى ليست إلا سجناً : « الفناء » فلا تبقى إلا الصفات الربانية : « البقاء » .

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليها : التصوف .

وهو ليس مذهباً خاصاً ؛ لأنه الحقيقة المطلقة .

وليست الطرق مدارس مختلفة ؛ لأنها طرق أى : سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .

الصوفى :

ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفى ، اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهل محض ؛ لأنه بذلك يبرهن على أنه — حقيقة — ليس بصوفى ؛ وذلك أن هذه الصفة «سر» بين الصوفى وربه .

ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه : إنه متصوف ، وهو عنوان يطلق على « السالك » فى أى مرحلة كان . ولكن الصوفى بمعناه الحقيقى ، لا يطلق إلا على من بلغ درجات عليا .

أصل كلمة صوفى :

أما أصل هذه الكلمة : « صوفى » ، فقد اختلاف فيه اختلاف كبير ، ووضعت ، لبيانه ، فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، إنها فى الحقيقه تسمية «رمزية » ، وإذا أردنا تفسيرها ، ينبغى أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها . وإنه لمن الرائع ، أن نلاحظ ، أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف : « الحكمة الإلهية » . فيكون الصوفى الحقيق إذاً ، هو الرجل ، الذى وصل إلى الحكمة الإلهة . إنه « العارف بالله » ، إذ أن الله لا يعرف إلا بالله . وتلك هى الدرجة العظمى « الكلية » ، فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

التصوف عربى إسلامى :

من كل ما سبق ، يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامى ، إنها ليست شيئاً أتى من الخارج فألصق بالإسلام ، وإنما هى — بالعكس — تكوّن جزءاً جوهرياً من الدين ؛ لذلك كانت فروضاً رخيصة ، تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى : يونانى ، أو هندى ، أو فارسى ، وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات ، التى ترتبط باللغة العربية ، ارتباطاً وثيقاً .

وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية ، وما يماثلها فى البيئات الأخرى ، فتفسير هذا طبيعى ، لا يحتاج إلى فرض الاستعارة : وذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها ، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويجب أن لا نعطى عناية كبيرة — حينما نتحدث عن أصل التصوف — لتلك المناقشات التى لا تنتهى بين مؤرخى التصوف ، خاصة بتحديد الفترة

الزمنية ، التي وجدت فيها لفظة « صوفى » فإن الشىء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجد تحت اسم آخر ، أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته .

وعلى كل حال ففيصل الحق فى مسألة أصل التصوف هو ما يأتى :
إن السنة ترشد فى صراحة لا لبس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة ، كليهما ، ينبعان — مباشرة — من تعليمات الرسول ، صلوات الله عليه . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على « سلسلة » تصل دائما إلى الرسول .

والحق أن التصوف ، عربى إسلامى ، كما أن القرآن — الذى يستمد التصوف أصوله منه مباشرة — عربى إسلامى .

وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ، ويفسر ، ويتدبر . ولقد فسر القرآن أولا لغويا ، ومنطقياً ، وكلامياً ، ولكن تفسيره صوفياً ، اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق ، وشمول .

وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معا ، فلا يمكن أن يوجد بينهما تناقض ، أو اختلاف ما . وكيف يوجد الإختلاف ، ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الإختلاف ، والحقيقة لا تقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها ؟

من شروط التصوف :

ولا بد فى التصوف من شرط جوهرى ، هو «التأثير الروحى» أو بتعبير أدق : « البركة » ، وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ » .

ومن هنا كانت « الطرق » .

ومن هنا كانت « السلسلة » .

وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ ، إلى مريد يوشك أن يصبح شيخا ، فيؤثر بدوره فى مريد ، أو مريدين ؟

ونختتم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهى : أن التصوف ، ليس عملا علمياً ، ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يُتَعَلَّم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية ، بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم ، لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والإنسان لا يصير — بمجرد قراءته — متصوفاً ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه .

ولأجل أن يسير الإنسان فى طريق التصوف لا بد له من :

١ — استعداد فطرى خاص لا يغنى عنه اجتهاد ، أو كسب :

٢ — الإنتساب إلى « سلسلة » صحيحة ، إذ أن البركة التى تحصل من الإنتساب إلى السلسلة الصحيحة شرط أساسى ، ولا يصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف ، حتى البدائية منها .

٣ — ثم يأخذ المتصوف الطيب الفطرة ، الذى باركه شيخه ، فى الجهاد الأكبر : التأمل الروحى ، وفى الذكر : أى استحضار الله « فى كل ما يأتى ، وما يدع ، وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى فيصل — موفقاً — من درجة إلى درجة ؛ حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت ، فيصبح ربانياً .

ذلك هو الصوفى ، الحقيقى .

— ٥ —

من أسباب التصوف الشك

يعرّف كثير من النـاس التصوف : بأنه المذهب القائل بالإلهام ، والبصيرة ، أو إذا شئت فبالعلم الألهى : أى بهذا النوع من المعرفة اليقينية ، الذى لا يتصور فيه الشك ، ولا تعبث به السفسطة ، وإذا كان هذا التعريف غير منطبق تماماً على حقيقة التصوف فى جميع أقطارها وجوانبها ومظاهرها ، فإنه — لا ريب — يرينا ما للمعرفة اليقينية من أهمية : فتصفية الروح ، ليست غرضاً من أغراض الصوفية إلا لأنها تمهد للاتصال بالله ، ولتلقى المعرفة عنه . ولا ريب أن معرفة تأتى عن طريق الإلهام ، أو ، إذا شئت ، فعن طريق الألوهية ، هى معرفة لا يتطرق إليها الهدم ، ولا تنهار أمام حجج المنطق . وأنت تحاول عبثاً ، إذا أردت أن تبعث الشك فى نفس الصوفى ، أو أن تحوله عن رأيه ، إذ كيف يحيد عن فكرة ، يعتقد أنه تلقاها عن الملأ الأعلى ، فى فترة صفت فيها روحه ، وتطهرت ؟ وكيف يكون على باطل ، وهو يعمل وفق إرادة وتعاليم عليا سامية ؟

على العكس من ذلك تماماً نرى الشاك : فهو شخص لا يعترف بحقيقة ، أو لا يعترف بأن هناك طريقاً يوصلنا إلى معرفتها ، على فرض وجودها ، وعبثاً تحاول أن تقنعه بعقيدة ما ، إذ هو لا يقتنع إلا بالشك ، ولا يرضى عن رأيه بديلا . وإن يدهش لشىء ، فإنما يدهش لعدم اقتناعك أن بفكرته فى الشك ، التى يعطيك على صحتها البرهان ، تلو البرهان ، والحجة تلو الحجة ، حتى لتعترف « فى النهاية » بأن رأيه له وجاهته ، وله قيمته .

يقين مطلق من جانب ، وشك عميق من جانب آخر ، اختلاف شاسع ، بل تعارض وتضاد .

رغم ذلك — وبالرغم من أن محاولة التقريب ، وعقد الصلة بين هذين المذهبين ، تبدو لكثير من الناس غريبة — فإنى أعتقد أن الخلاف بينهما أقل مما نتصور ؛ ذلك أن الصوفى ، والشاك ، يتفقان فى المبدأ الذى بنى عليه كل منهما اتجاهه . أريد أن أقول : إن الحالات التى تؤدى بالصوفى إلى التصوف ، هى ، فى الأغلب الأعم . نفس الحالات التى تؤدى بالشاك إلى رأيه . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فان الشك نفسه كثيراً ما يؤدى إلى التصوف .

* * *

كلنا يعلم أن هناك طريقين للمعرفة : هما الحواس ، والعقل : فمعرفتى بالشىء ، تنتج عن أنى أراه ، وأحسه ، أو أنى أستنتجه ، بدليل عقلى .

كثير من الناس — بل الأغلبية الساحقة منهم يأخذ المعرفة الناشئة عن هذين الطريقين قضية مسلمة ، لاتقبل جدلا ، ولا يحيط بها شك . ولكن فى العالم أيضا ذلك الشخص ، الذى يرى أنه ما دامت الحواس تخطئ ، فهى ليست أهلا للثقة : إنى أرى السراب فأحسه ماء ، وتسيطر على فكرى صورة من الصور ، وتقوى هذه السيطرة ، فأرى الصورة ممثلة أمامى ، والمريض يرى خيالات ، لا حقيقة لها ، والخائف يرى أشباحاً ، ويسمع أصواتاً ، لا وجود لها . إن الأمثلة على ذلك لاتحصى ، وكل يوم ، بل كل فترة ، تعطينا دليلا على خطأ الحواس ، فهل بعد هذا نثق فيها ، أو نثق بمعرفة تأتى عن طريقها ؟ كلا .

بقى العقل . ولكن ما قيمته ؟ كلٌّ ينتسب إليه ، ومع ذلك فلا تجد اثنين على اتفاق تام .

إن هذه المذاهب الفلسفية التى لا تكاد تعد ، كلها مبنية على العقل ، وكلها مؤسسة عليه ، وقائمه به ، وكلها جذابة أخاذة تغرى بقوة أدلتها ،

وتستولى عليك بصرامة منطقها ، ومع ذلك فلا تـكاد تتفق فى شىء ما .

ثم ماذا ؟ ألم يبرهن أحدهم ببرهان عقلى ، منطقى ، على أن الأرنب لا يلحق بالسلحفاة — مهما أسرع فى العدو — إذا بدأت السلحفاة قبله وسبقته بمتر ، أو مترين ؟

ألم يبرهن أحدهم على أن السهم فى سيره لا يتحرك ؟

وأنت نفسك أليست آراؤك فى حالة التشاؤم ، غيرها فى حالة أخرى ، وفى حالة السرور ، غيرها فى حالة الحزن ؟

ثم البراهين ، التى ترى قوتها ، وتعتقد فيها فى حالة الحلم ليست أقل من أن يقال عنها : إنها براهين عقلية . . . وهكذا ، إذا أخذت فى تعداد الأمثلة على عدم مقدرة العقل ، فإنك لا تقف عند حد .

* * *

أخطأت الحواس فلا ثقة فيها . وأخطأ العقل فلا ثقة به . فهل معنى ذلك أن لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟ نعم ، يجيبنا الشاك . وسنمكث إلى الأبد محكوماً علينا ، بالجهل ، أو ، إذا شئت ، بعدم المعرفة الصحيحة .

ولـكن الصوفى — بعد أن سار هذه الخطوات ، ووصل إلى الشك فى قيمة الحواس ، والعقل ، وفى قيمة المعرفة الناشئة عنهما — يعود ، فيثبت المعرفة عن طريق آخر : هو الإلهـام ، أو البصيرة ، أو العلم اللدنى ، كما يقولون .

قطع الصوفى ، والشاك ، المرحلة الأولى — إذاً — معاً فوصلا إلى الشك فرضى به أحدهما ؛ واقتنع بأن لا مطمح وراءه ، وخطا الآخر خطوة أخرى ، خطاها ، لا ليضع لنفسه منطقاً ، أو منهجاً يسير عليه ، ليعتصم من الزلل الذى توقعه فيه حواسه ، ويوقعه فيه عقله — كما يفعل الفلاسفة — وإنما ليصل إلى معرفة من طريق آخر ، لا يتسرب إلى نتائجه شك .

* * *

لنلق الآن نظرة على النفس الإنسانية ، فنرى أنها لا تحب الإقامة على الشك ، ولا ترغب فى اتخاذ الإنكار مذهباً ، وقاعدة ، وأنها — على كثرة حبها للمعرفة ، وشغفها بالاستطلاع — تريد دئماً أن تجعل اليقين قاعدة آرائها ، وأعمالها .

ونرى — أيضاً — أن من أشق أوقات الإنسان ، تلك الفترات التى تضطرب فيها نفسه ، وتتذبذب آراؤه ، ويختلط عليه الأمر .

هذه الحالة تبعث فى النفس الضيق ، والكآبة ، فإذا اشتدت ، واستمرت سببت أحياناً الانتحار ، وأحياناً الجنون ؛ ولكنها — أيضاً — فى كثير من الأحيان — تؤدى إلى التصوف .

نعم ! تؤدى إلى التصوف : حيث يجد الشخص ملجأ تستقر فيه نفسه ، وتهدأ ، وتسكن ؛ وحيث يجد اليقين ، والإيمان ، والعلم الثابت .

لقد كان « الحارث بن أسد المحاسبى » متعطشاً إلى المعرفة ، والبحث ، والاضطلاع ، وإلى الوصول لرأى لا يعتوره الشك ، إلى رأى يقينى ، ثابت لا يتزلزل . ولكنه بعد أن بحث ، زاد شكا — بدل أن يزيد إيماناً — واضطربت نفسه ، وخشى أن يأتيه الموت فجأة ، قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم : فكد وجد ، ثم يئس من أن يصل إلى النتيجة .

ولكن الله وفقه فى النهاية ، إلى الإتصال بقوم صالحين ، فسكن إليهم وأخلد . سكن إليهم ، وأخلد ، لا لأن منطقهم أوجد عنده اليقين ، ولا لأن براهينهم بعثت فى نفسه الاطمئنان ، وإنما لأن سيماهم على وجوههم تبعث الثقة ، وتهدى إلى الرشاد .

لندع المحاسبى نفسه يصور حالته ـ والنص الذى نثبته الآن ،من مخطوط له بدار الكتب المصرية ، لم يطبع بعد ، اسمه « النصائح » ـ وقد تعمدت إثبات هذا النص كاملا ، لما بينه وبين كلام الغزالى فى كتابه « المنقذ من

الضلال » من شبه ، يهم كل باحث فى التصوف معرفته .

قال المحاسبي ـ بعد مقدمة موجزة ـ أما بعد ، فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرها ؛ فلم أزل ـ برهة من عمرى ـ أنظر اختلاف الأمة ، وألتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد ، وأطلب من العلم والعمل ، واستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل ، بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت فى مذاهبها ، وأقاويلها ، فعلقت من ذلك ماقدر لى ، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً ، قد غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يزعم أن النجاة فى تبعهم ، وأن الهالك من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافا : فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز .

ومنهم الجاهل ؛ فالبعد عنه غنيمة .

ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياه ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ماحمل .

ومنهم متشبه بالنساك ، متحر بالخير ، لاغناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ولا معتمد على رأيه .

ومنهم منسوب إلى العقل ، والدهاء ، مفقود الورع والتقى .

ومنهم متوادون ؛ على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتباذلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس ، عن الآخرة يصدون ؛ وعلى الدنيا يتكالبون ؛

وإلى جمعها يهرعون ؛ وفى الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء ؛ وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ؛ والسوء معروف .

فتفقدت فى الأصناف نفسى ؛ وضقت بذلك ذرعا ، فقصدت إلى هدى المهتدين ؛ بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ؛ وأعملت الفكر ؛ وأطلت النظر .

فتبين لى فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجماع الأمة ، أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيل المكث فى العمى .

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبى .

ووقفت عند اختلاف الأمة ، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحذراً من الاقتحام قبل البيان ، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله ، وحرامه ، وجميع حدوده ، والإخلاص لله تعالى ، بطاعته ؛ والتأسى برسوله ﷺ .

فطلبت معرفة الفرائض ، والسنن ، عند العلماء فى الآثار ، فرأيت اجتماعا ، واختلافا ، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن الفرائض والسنن ، عند العلماء بالله ، وأن الفقهاء عن الله العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله ﷺ المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر الله ، وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف ، المجتمع عليهم ، والموصوفين ، أقفوا آثارهم ، وأقتبس من علمهم ؛ فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً ، كما قال رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ » فطوبى للغرباء ، وهم المنفردون بعلمهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفجأنى على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة .

فانكمشت فى طلبى عالما لم أجد لى من معرفته بدآ ، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن فى النصح .

فقيض لى الرءوف بعباده ، قوما وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى : مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون أحداً فى معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته ، يرضون أبداً بالصبر ، على البأساء والضراء ، والرضى بالقضاء ، والشكر على النعماء يحببون الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى ، علماً بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماً بكتابه وسنته . فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الإغتياب ، والظلم ، والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعمهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بشأنهم مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرىء منهم شأن يغنيه . علماء بأمر الآخرة ، وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب ؛ ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ، ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى ، وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع ، بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى .

فتبين لى فضلهم ، واتضح لى نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم .

فأصبحت راغباً فى مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أوثر عليهم أحداً .

ففتح الله لى علماً انفتح لى برهانه ، وأنار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقر به ، أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكما على قلب من جهله ، وجحده ، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله ، والعمل بحدوده ، واجباً على ، واعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى .

وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به علىّ ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك ، وأنى لا أدرك شكره أبداً » . انتهى كلام المحاسبى .

وليس المحاسبى بدعاً فى ذلك ، وإنما يتفق معه الإمام الغزالى . بل الإمام الغزالى أوضح وأدق .

حاول أن تتصور معى بالضبط حالة الإمام الغزالى النفسية . فستجده متلهفاً على المعرفة محباً للاطلاع ، والدرس «والبحث» غارقاً فى محيط الفلسفة والعلم . ولكنه مع كثرة اطلاعه ، وتنقيبه لم يجد فى المذاهب الفلسفية مايرضيه ، ولم يجد فى الأدلة العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب ما يقنعه .

ورأى أن من العبث أن يبدأ فى تأليف مذهب فلسفى جديد ، إذ مصير ذلك — حتما — مصير ما سبق من المذاهب ، التى إن أخذت بألباب كثير من الناس ، فإنها لا تثبت أمام النقد الصارم ، والتى تبعث التفرقة ؛ إذ ليس

فيها من القوة البرهانية ما يقنع الجميع .

ليس هناك ألا الشك إذاً .

وفى الواقع ، لقد شك الإمام الغزالى : شك فى الحواس ، وشك فى العقل ، وشك فى ما ينتج عنهما من معرفة .

ولكن نفسه اضطربت ، ونحل جسمه ، وضاق بالحياة ذرعاً ، ولم يجد ملجأ ، ولا عاصماً من هذه الحيرة ، وهذا الاضطراب ، إلا التصوف ؛ فولج بابه ، واطمأن إليه .

وكتابه « المنقذ من الضلال » الذى يقص فيه تطوره الفكرى ، يصور هذا خير تصوير .

وكما يبدأ المحاسبى بحديث « ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة » الناجية منها واحدة ، كذلك يبدأ الغزالى بهذا الحديث ، وتكاد بعض جمله تكون مأخوذة من كلام المحاسبى نصاً : مما دعا بعض المستشرقين إلى أن يذكر : أن الغزالى — فى كتابته لكتابه هذا — تأثر بالمحاسبى ، فى كتابته لمقدمة كتاب « النصائح » .

وسواء أكان هذا صحيحاً ، أم غير صحيح ، فما لا شك فيه أن الإمام الغزالى قرأ هذا الكتاب ، إذ أنه استشهد ببعضه فى « الإحياء » .

والذى يعنينا الآن ، هو أن الإمام الغزالى — كما يُصَوِّر فى كتابه — بدأ يشعر بعدم الاطمئنان ، حينما فكر فى هذا الحديث الشريف ، وحينما رأى أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب ، على كثرة الفرق ، وتباين الطرق ، بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون ، ومانجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، وكل حزب بما لديهم فرحون . لهذا أخذ الإمام الغزالى فى البحث جهد طاقته ، ليصل إلى اليقين « الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط

والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك » ، ثم يقول :

« وعلمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني » .

« ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا فى الحسيات والضروريات » ولكن :

« انتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضاً » .

ثم أخذ الإمام الغزالى يذكر أسباب شكه فى المحسوسات ، وفى الضروريات وفى العقليات ، وقد ذكرنا طرفاً منه آنفا .

واستمر الإمام على تلك الحالة « حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها ، على أمن ويقين » .

« ولم يكن ذلك بنظم دليل ، أو ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف . فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل رسول الله ﷺ عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » فقال :

« هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » .

فقيل وما علامته ؟ فقال :

« التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » ، وهو الذى قال عليه السلام فية :

« إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره » ، فمن ذلك

النور ينبغى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الوجود الإلهى فى بعض الأحايين ، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام :

« إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

هذا الشك الذى حدا بالغزالى إلى التصوف ، كما حدا بالمحاسبى قبله ، هو شك أتى من البحث وراء الحقيقة .

* * *

ولكننا لا نريد أن نقول : إن هذا النمط من الشك ، هو ، وحده أساس التصوف ، وإنما نريد أن نقول : إن أساس التصوف ـ فى الأغلب الأعم ـ هو الشك على الإطلاق : سواء كان هذا الشك يتصل بالناحية الفكرية ، أو بالناحية الاجتماعية ، أو بالناحية الوجدانية ـ فهذا الشخص الذى صدم فى عاطفة من عواطفه ، وكثيراً ما تكون عاطفة الحب ، تلك العاطفة القوية ، الجامحة ، التى تهز النفس هزاً . والتى تؤدى كثيراً إلى الانتحار — هذا الشخص الذى صدم فى تلك الناحية قد تصل به الصدمة إلى الشك فى كل شخص ، أو إلى الشك فى أن يجد مثاله الأعلى فى هذه الحياة ، فيتجه إلى حياة العزلة والانفراد ، أو يعتكف فى مسجد ، أو فى بيته ، عابداً مصلياً ، طالباً من الله أن يكون عماده ، وأن يكون ملجأه ، وأن يصرف عنه السوء .

وهذا الشخص الرقيق المزاج ، الذى يرى فى كل آونة ظلم الناس ، وفساد الحياة ، والذى لا يجد فى نفسه القوة على الجلاد والصراع ، والذى يصل به الأمر فى النهاية إلى الشك فى المجتمع ، وفى أهله ، فيضيق بالحياة ذرعا : لا يجد مفراً من أن يعتكف متأملا مفكراً فى مثل عليا ، أو فى حياة أخرى ، أو فى ملإ أعلا ، صفت فيه النفوس : وتطهرت ، وسمت عن كل دنس .

وهكذا إذا بحثنا فى حياة هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم الصوفية ؛ فإننا نجد غالباً فى حياتهم نقطة الارتكاز : الشك .

— ٦ —

الشك ومدارج السالكين

ولكن تلك الحياة التى يتجهون إليها ، تلك الحياة الجديدة ، التى أخذت من النفوس كل مأخذ ، والتى اتجهوا إليها فى تحمس وحرارة ، لا تزيل من أنفسهم الشك ، بجميع ألوانه . حقيقة إنها تزيل من أنفس هؤلاء الذين شكوا من الناحية الدينية ، الشك فى تلك الناحية ، وتنسى الآخرين الشك الذى دفعهم إلى حياة التصوف دفعاً .

ولكن النفس التى تتجه إلى الحياة الدينية فى حرارة وتحمس ، إنما تتجه نحو الكمال ، من الناحية الدينية ، وهذا الكمال أول ما يبدأ ، يبدأ بالتوبة ، ومن المعقول ، ومن المنطق ، أن ذلك الشخص الذى اتجه فى تحمس إلى الناحية الدينية ، يرى فى ماضيه كثيراً من الأخطاء ، فلا تهدأ نفسه ، ولا تستقر ، إلا إذا خضع لله ساجداً ، مستغفراً لنفسه . طالبا من الله الصفح والرضاء .

ولكنه لا يكاد يتخطى تلك الفترة ، إلا ويعرض له الشك فى كثير مما يتصل بحياته العادية ، اليومية ، ويكاد يتساءل فى كل لحظة ، أهذا حلال ، أم حرام؟ طيب ، أم خبيث ؟ حسن ، أم قبيح ؟ يرضى الله ، أو لا يرضيه ؟ ويتحرج فى المأكل ، والمشرب ، والملبس ، وهذا هو « أورع » ، وسببه كما ترى الشك.

ولكنه مهما تحرج فى مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، ومهما تحفظ واحتاط ؛ فإنه سيجد دائماً ، أن ذلك لا يكفى ، ويشك فى كل لحظة ، وآونه ، ويندم على ما فات ، وتقوى فى نفسه الحرارة الدينية ، فيرى أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا ، إن هو إلا لهو ، ولعب ، وضلال ، وباطل ، وأن خير طريق — إن أراد الهداية أو الرشد — إن هو إلى « الزهـــد » فى تلك الحيـــاة ، التى لا تساوى عند الله جناح بعوضة .

« توبة » ، ثم « ورع » ، ثم « زهد » ، تلك هي — بالتتابع — بعض ما يسميه « الصوفية » مقاماتهم .

ولكن الكمال — كما قلنا — ليس له من غاية ، أو من حد . نعم وصل صاحبنا إلى الزهد في تلك الحياة ، ولكن ! أهذا هو المطارب ؟ إنه إنسان ، وطبيعته الحيوانية — مهما قويت إرادته — تجذبه إلى الحياة الدنيا ، وترغبه فيها وتبعث فيه السخط على حياته . ويحصل ذلك الصراع العنيف بين المادة والروح ، الذي صورة « أناتول فرانس » في رواية « تاييس » تصويراً بديعاً ، وصورة « المحاسبي » في كتابه « بدء من أناب إلى الله » ، وفي كتاب « الرعاية » تصويراً دقيقاً إلى أقصى حد من الدقة .

هذا الصراع ، يبعث في نفس الصوفي اضطراباً لا مزيد عليه بل يبدأ الصوفي يشك في نفسه ، وفي قيمته الذاتية ، ويكاد يصل به الأمر إلى أن يعتقد في تخلي المعونة ، أو التوفيق الإلهي عنه ؛ لأنه ليس أهلا لها . ونجده في تلك الآونة يبكي ، ويتألم ، ويتضرع إلى الله أن يمنحه معونته ، وأن يصفح عنه ، إذا كان قد أخطأ بدون علم منه ، ويعترف بأن لا قيمة له في الواقع ، أمام تلك القدرة العظيمة ، وكل ما يرجوه ، أو يأمله ، إنما هو : أن يكون عبداً ، وأن يمنحه السيد شيئاً من عنايته ، أو توفيقه أو رضاه .

يستمر صاحبنا كذلك فترة طويلة أو قصيرة ، وتثور روحه آونة بعد أخرى ، على الناحية المادية ، تكبح من جماحها ، وتهدئ من ثورتها ، حتى يصل إلى « الرضى » ، وهذا هو « المقام » الرابع ، وهو أرقى بدون شك من « الزهد » .

ولكن أذلك هو الكمال ؟

لم يقل الصوفي ، ولا يمكن أن يقول : إن معنى الرضى هنا انقطاع كل الرغبات والشهوات ، أو زوال الآمال والطموح ، كلا ! إنما معناه أن تلك الثورة التي كادت تودي بصاحبنا ، وتجعله يعود إلى حياته الأولى ، هدأت ، وانتصرت عليها الناحية الروحية .

وليس السبب فى هذا — حسب رأيه — قوة إرادة ، أو ذاتية ، وإنما ذلك توفيق من الله، تلك معونة منه، أراد به خيراً ،أراد به الهداية والرشد، فماذا يستحق ذلك الخالق، الذى أعانه من غير أن يكون فى حاجة إليه،والذى هداه من غير أن يكون فى تلك الهداية نفع للخالق جل وعلا ؟ إنه إذا لم ينصرف إلى الله انصرافاً كلياً وجزئياً ، كان مقصراً . وليس كل التقصير فى مرتبة واحدة : فذلك تقصير فى حق الإله ، الذى منح الحياة ، والذى أفاض النعم ، والذى غمره باطمئنان النفس ، وانتشله من الضلال ، ورفعه إلى مكانة ، منحه فيها معونته ، وتوفيقه . ويبدأ الشك فى خلجات نفسه ، وفيما يبدو من دقائق الرياء ثم ينتهى إلى الانصراف المطلق — فى حدود الإمكان — إلى تلك الذات العليا الكاملة .

ولكن هذه الذات — مهما فكر فيها ، وتأمل — يجد دائما فى نفسه الرهبة منها ، فيزيده ذلك انصرافاً إليها ، ويجهد نفسه فى ذلك الانصراف إلى الله ، حتى إذا استمر فى ذلك ، منحه الله من فيضه ، وتحولت الرهبة شيئاً فشيئاً إلى حب عميق ، ثم إلى رؤية الله فى كل ناحية ، وفى كل جانب ، أو فى كل مكان ،ثم إلى الفناء فى تلك القوة، التى أخذت عليه سمعه ، وبصره، فأعلن ، أو أسر : « مافى الجبة إلا الله » .

أما بعد، فإنى لا أعتقد أنى ابتعدت كثيراً ، فى كل ماسبق ، فى موضوع: الشك والتصوف ، عن النص الآتى ، بل اعتقد أن كثيراً مما سبق ، لم يكن إلا شرحاً له .

والنص للسهروردى ، ذكره فى كتابه « عوارف المعارف » فى نهاية الفصل المعنون : « ماهية التصوف » .

قال السهروردى : وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف ، تزيد على ألف قول ، ويطول نقلها ، ونذكر ضابطاً يجمع جلّ معانيها ، فإن الألفاظ

— وإن اختلفت — متقاربة المعانى ، فنقول :

« الصوفى » هو الذى يكون دائم التصفية » لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس .

ويعينه على هذه التصفية ، دوام افتقاره إلى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفرّ منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقته وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

« كُونُوا قَوَّامِينَ لله ، شُهَدَاء بالقسط » وهذه القوامية لله على النفس ، هى التحقق بالتصوف .

قال بعضهم : « التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف » والسر فيه : أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الآلهية ، يعنى أن روح الصوفى منطلقة منجذبة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها ، ولا بد للصوفى من دوام الحركة ، بدوام الافتقار ، ودوام الفرار ، وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس . ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى « الصوفى » جميع المتفرق فى « الاشارات » .

— ٧ —

التصوف والدين الإسلامى

ألتصوف صلة بالدين ؟ الواقع أن الإنسان يصعب عليه أن يتصور صوفياً لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية وغايته دائما — حسب ما نعلم — روحية : رضاء الملأ الأعلى ، حب الله ، الاتصال به ، الفناء فيه . تلك هى الأغراض التى يسعى إليها أو إلى بعضها الصوفى ؛ لذلك لا يمكننا أن نتصور شخصاً ليس بمؤمن يسعى إليها ، وكل ما يمكننا أن نتصوره — وإن كان فيه شىء من الغرابة — هو تصوف الرجل الذى لا يؤمن إلا بالله ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسعى وراء هذا الكمال ، وإذاً : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات ، حتى يصل الإنسان إلى أولى تلك الخطوات التى وضحناها سابقا ، ثم ينتقل منها شيئاً فشيئاً نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا .

ولعل حالة هؤلاء الأشخاص — الذين كانوا يسمون فى الجاهلية بالحنفاء — مما يقرب فهم ذلك بعض التقريب ، وهم قوم رأوا كما رأى «قس بن ساعدة» أن هذه السماء ذات الأبراج ، وهذه الأرض ذات الفجاج — إلى آخر ماقاله فى خطبته — ترشد إلى أن هناك صانعاً ، مدبراً ، وإلى أننا لم نوجد على ظهر تلك البسيطة عبثاً .

وإذا كنا لا نعلم الكثير عن حياة هؤلاء القوم النفسية ، فإننا نعلم أن محمداً ﷺ لم يسجد لصنم ، ولم ينغمس فيما انغمس فيه أهل عصره ، وإنما كان فى نفسه مثال أعلى ، غامض بدون شك أو مبهم لحياة أخرى روحية تخالف تمام المخالفة ما كان عليه أقرانه ومعاشروه ، ولو صوّر لنا محمد ﷺ

ما كان يجول بخلده قبل الرسالة ، لرأينا حياةً روحية خصبة ، فيها التأمل الروحي العميق ، وفيها خضوع المادة للروح . وانهزامها أمامها بسبب قوة تلك الإرادة ، التي لم تفارق الرسول ﷺ في أشد لحظاته حرجا .

تلك الناحية الروحية عند محمد ﷺ التي كانت تشتدفتسيطر عليه سيطرة كلية وجزئية ، فتجعله يهرب من العالم : من تلك الحياة الدنيا ، التي ليست إلا زينة ، ولعباً ، وتفاخراً ، وتكاثراً بالأموال والأولاد ... يفر منها ويعتزلها ويذهب إلى غار حراء ، متأملا مفكراً ، تلك الحياة التي هذا شأنها ليست إلا تصوفا لم تصقله — بعد — الرسالة ، فتصل به إلى أسمى مراتبه .

لقد تناقش الناس كثيرا في تصوف محمد ﷺ ، وسخر بعضهم ، حينما كانوا يسمعون أن محمدا ﷺ أول صوفي في الإسلام ، والواقع أن التصرف لا يعدو أن يكون جهادا عنيفاً ضد الرغبات ، ليصل الإنسان إلى السمو ، أو إلى الكمال الروحي : ليكون عارفا بالله .

وليس من المحتم أن يكون من عناصره فكرة الاتحاد ، أو الوحدة أو الحلول .

هذا هو ، المحاسبي ، الذي لا يشك في أنه من زعماء الصوفية ، ليست عنده فكرة الاتحاد ، أو الحلول ، أو ما شاكل ذلك من الحالات التي يشعر بها بعض الصوفية حينما تسيطر عليهم فكرة الله ، فتأخذ بنفوسهم وحواسهم وتأخذ بكل ما فيهم من تفكير ، فيرون ، في النهاية ، أنه :

أينما تُولُّوا فثَمَّ وَجْهُ الله ،

« وأن الله معنا أينما كنا »

وأن « ما في الجبة غير الله » .

نعود فنقول : إذا كان ذلك ـ الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ـ ليس من عناصر التصوف اللازمة له ، وأن عنصره الأساسي ـ كما يتضح ذلك

من تاريخ الصوفية : المحاسبي، أو الغزالي، أو رابعة العدوية، أو كثير غيرهم — ليس إلا الجهاد لرضاء الله ، وتزكية النفس حتى تعرف الله به ... إذا كان الأمر كذلك ، فإننا نعتقد — ولسنا فى ذلك الرأى من المجددين — أن محمداً ﷺ كان أول صوفى فى الإسلام .

* * *

بقى الحديث عن القرآن ، وقد كثر الكلام فيه أيضاً ، ومحط النزاع هو أن القرآن ، كتاب دنيا ، وآخرة ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول — فى صراحة وإيجاز « ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا » .

أما التصوف فهو توكل وزهد ، وليس له من هذه الحياة الدنيا قليل ولا كثير .

والحقيقة أن كلا من هذين الرأيين يحتاج إلى تحديد ؛ فالقرآن ليس كتاب دين ودنيا على الإطلاق، والصوفى ليس رجل آخرة ، فقط ، على الإطلاق.

أجل ؛ إن القرآن يدعو إلى ألا ننسى نصيبنا من الدنيا، وإلى أن نكون أقوياء ، وإلى أن السن بالسن ، والعين بالعين، والأنف بالأنف ، والجروح قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأسس القرآن تشريعاً لكثير من المشاكل الدنيوية .

كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، لوجدنا أن الحياة الآخرة — فى نظر القرآن — خير وأبقى ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأن الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر ، وأنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة .

وأن ما فى القرآن من دعوة إلى الجهاد إنما هو لإعلاء كلمة الله .

وما فيه من الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا إنما هو لأجل ألا يكون المسلم عالة على غيره .

وخير من الأخذ بالثأر العفو والصفح .

ثم هو بعد ذلك يذكر بأن المؤمنين ، هم الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما ، إلى آخر ما فى القرآن من آيات ، ترشد إلى أن الحياة فى هذا العالم هى — حقاً — الحياة « الدنيا » وأن الآخرة خير وأبقى .

أما أن الصوفى رجل آخرة فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ، معنى إيثار الآخرة عند الرجل الصوفى أو على الأقل عدم التحديد ، فهذا الصوفى يتزوج ، ويدعو هو الآخر : بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن المؤمن القوى ، خير عند الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب ، خير من أن يتكفف الإنسان الناس ،أعطوه ، أو منعوه ، ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن : « وللآخرة خير لك من الأولى »، ومعنى إيثاره للآخرة إذاً إنما هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله تعالى ،

وما دام الأمر كذلك ، فإننا نقول ـ ولسنا فى ذلك أيضاً بمجددين ـ إن القرآن يدعو إلى التصوف ، ويحث عليه .

وأنه كان السبب فى بعث التصوف الإسلامى .

* * *

ومهما يكن من شىء فإن التصوف الصحيح الحق لا يخالف الإسلام .

يقول الجنيد ـ سيد هذه الطائفة وإمامهم ، على حد تعبير « القشيرى » ـ : « الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام » .

وقال : « من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به

فى هذا الأمر : لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » .

وقال : « مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب ، والسنة » :

وليس هذ مذهب الجنيد فقط وإنما هو مذهب كل أهل الطريقة الحقيقيين : إنهم جميعاً يتخذون الرسول إماماً ، فينهجون نهجة ، ويسلكون سبيله ، ويقتفون أثره ، وتتنسم أرواحهم هديه ، وكلهم من رسول الله ملتمس ، غرفاً من البحر ، أو رشفاً من الديم .

نفعنا الله بهم .

— ٨ —

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

(١)

فى كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ؛ نجدهم فى الميدان الدينى ، وفى الميدان السياسى ، وفى الميدان العلمى ، ونجدهم كذلك فى ميدان التصوف .

وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق .

وكما لا يضر الدين ، ولا يضر العلم ، أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون ، كذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدودا من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين ، كذلك الأمر ، فى الجانب الصوفى .

نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثا عن بدعة ضالة أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التى لم تتعمق فى الجانب الدينى عموما ، ولا فى الجانب الصوفى خصوصا .

هذه البدعة ترى أن الشخص الذى وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج . . . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون ! !

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت — فى العصر الحاضر — بين رجال درسوا القانون والتشريع : يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية .

وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التى وصلتهم فسترى عجبا عجابا ؛ ستعلم أن مصدر هذه المعرفة : إنما هو الأرواح التى يستحضرونها ، فتلبس - فيما يزعمون - جسم الوسيط وتتقمصه ، وتكشف لهم عن الغيب من أزله إلى أبده ومن بدايته إلى نهايته ، ومن مشرقه إلى مغربه ! !

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح في وسطهم، يتحدثون عنها مصبحين وممسين ، حتى لقد أصبحت دينهم الذى لا يدينون بغيره، ولا يتلقون الوحى عن سواه ، وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، تحل محل القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف، ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عباقرة الملهمين .

وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم ، فى فترة من الفترات ، أنه من كبار الأولياء ، ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ، ثم تجاوز ذلك إلى أنه عيسى عليه السلام ، ثم كان فيما بعد محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، ثم تخلص من البشرية جملة فزعم لأخصائه أن الألوهية حلت فيه ، والأرواح التى يستحضرها تؤيده فى كل ما يزعم ، ولا ترى هذه الأرواح ، كما لا يرى هو ، فى ذلك شذوذاً ولا تناقضا ، وصدق الله تعالى ، إذ يقول فيه وفى أمثاله ممن يتصلون بالجن ، وينحرفون عن سواء السبيل :

« وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » .

ولعلك تتساءل . هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟

وجواب رجال التصوف فى ذلك حاسم قاطع :

ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف ، اللهم إلا إذا كانت هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة ، لأنها تتعامل مع الجن والشياطين ! ! ويتذكرون فى هذه المناسبات قول الله تعالى :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يُلْقُونَ السَّمْعَ ، وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » .

وقوله تعالى :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة خداعه ، وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيف ، والضلال والانحراف الذى يسود الأوساط التى تعمل على ترويجه ، وليس من همنا ، أن نبين نشأتها التاريخية فى الغرب بين الأوساط اليهودية ! التى روجت لها ، وأنفقت فى سبيل نشرها الأموال الطائلة ، لأغراض وأهداف يعرفها المحيطون بسر انتشار هذه الدعوة : « تحضير الأرواح » .

إن غرضنا الآن إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة : « إسقاط التكاليف الشرعية » ، وهى مسألة لم تنشأ بين بعض من يزعم التصوف فى العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق فى الباطل ، إن كان السبق فى الباطل له فضل .

إنها ضلالة قديمة نشأت فى أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتسابا باطلا ، وحاربها ممثلو التصوف فى كل عصر وفى كل بيئة .

ومما لا شك فيه أن القول الفصل فى كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضع الذى تنتسب إليه المشكلة .

وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف فى زعامتهم اثناء ، نجدهم ـ سواء فى ذلك القدماء منهم والمحدثون ـ ينكرون الفكرة إنكارا تاما ، ويرونها زيفا وضلالا وانسلاخا عن الدين بالكلية .

وسنتحدث عن آراء بعض القدماء فى الموضوع ، ثم نفصل ، نوعا ما ، رأى الشيخ عبد الواحد يحيى ، وهو زعيم الصوفية فى العصر الحديث دون منازع .

قال أبو يزيد البسطامى لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية ـ وكان رجلا مشهورا بالزهد ـ فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ، ﷺ ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟ ! » .

ومن كلام أبى يزيد :

« ولو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟ » .

ويقول سهل التسترى معبراً عن أصول التصوف : « أصول طريقتنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجنيد — سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيرى :

« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته » .

وذكر رجلٌ المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل »

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا » .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالى ، فإننا نجده يقول ، فى شىء من التفصيل ، فيه دقة ، وفيه استدلال غاية فى القوة :

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى ، قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامتين له :

العلامة الأولى : أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً ، وإقداما وإحجاما ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض ؟ ! !

فإن قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور ؟

وأقول لك : أعلم أن هذا عين الغرور ، وإن المحققين قالوا :

« لو رأيت إنسانا يطير فى الهواء ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان » ، وهو الحق .

فإذا ما انتهينا أخيراً إلى أبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه ، فإننا نجده يقول :

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف وقل لنفسك : أن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة » .

والصوفية يتبعون فى كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القولية

والعملية للرسول ﷺ ، وهم يعلمون — لا شك — البديهات التاريخية : من أن الرسول ﷺ ، كان المثل الأعلى فى أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .

هذا رأى القدماء وسنتحدث عن رأى الشيخ عبد الواحد فى كلمة تالية إن شاء الله تعالى، وخير ما نختم به هذه الكلمة الآن الحديث النبوى الكريم:

« سئل النبي ﷺ عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن فى الله . فقال : كذبوا ؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

— ٩ —

التصوف والتحلل من الشريعة الاسلامية

(٢)

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحي[1]

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون فى ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفى ، وهذا فى الواقع استعداد نفسى لا يوجد إلا فى الغرب الحديث .

ولا شك فى أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث فى مدى المسئولية التى تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة فى مظهرها الحرفى ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنـا .

بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ؛ ذلك أنهم

---

(١) الشيخ عبد الواحد يحي من كبار المفكرين العالميين ، نشأ فى فرنسا كاثوليكيا ، وانتهى به البحث إلى الإسلام والتصوف ، ومارس التصوف نظريا وعمليا ، حتى ليعد أكبر الحكماء فى العصر الحديث .

وقد توفى بالقاهرة منذ بضع سنوات .

وترجمت كتبه إلى اللغات الحية .

وأثره فى الغرب كبير ، إلى درجة أن كثيراً من الجمعيات فى أوربا كونت باسمه لتتابع أثره وتحذو حذوه .

وهو فى هـــذه الكلمة يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن وجهة نظرية فحسب .

ينكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلى الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعى أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملى ، ذلك أن الأكثر ، وهو : « التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو : « الشريعة » .

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفى ، إلى الشريعة ، من حيث عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملى منها بالنسبة له . . . هذه النظرة تتضمن ، ولو نظريا ، تقليل أهمية الجانب العملى فى التصوف نفسه . وفى هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذى عنده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفى ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفى .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تبالى بما أنزل الله . وإعادة تكوين الروح الخاضعه لما أنزل الله هو أول خطوة فى طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ، ومن الطبيعى أن يقوم الجو الدنيوى الذى يعيش فيه الغربيون عقبة فى سبيل فهمهم للجانب العملى من الشريعة وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوى ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعنى التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا ، إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث . وفى الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه فى الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة فى بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالا يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، أحدهما خارجي والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن ، من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفي وهي مع ذلك لا ترتكز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن البديهي أن هذه الجماعات — ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة — ليست على شيء .

ولنشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول .

إن الإنسان لا يشيد القصر في الهواء ، إنه لا يشيده على غير أساس ، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة إنما هي بناء في الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لابد منه لكل سالك ، وكالأساس تماما ، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار المتصوف في طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقا وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها دون أن يضربوا بسهم في الميدان الصوفي ؛ ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجي ، ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي ، ويحياها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذي لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا

إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفى .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومى ، كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يُقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك ، لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التى يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال فى نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ؛ وقد يكون العمل واحداً فى نوعه ويؤديه شخصان فيوصف عند أحدهما بأنه دينى وعند الآخر بأنه دنيوى . فإن كان القصد « الله » فالعمل دينى وأن كان القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوى ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » .

ومن البديهى أن الحديث فى أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيه : تطبيق جزئى لقضية عامة .

وفى العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن

هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً ، وها نحن أولاء قد وصلنا في هذا التأخر إلى أن الغرب حاليا يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة (ضرورة سيادة الروح الدينية في مجتمعاته) ؛ إنه على نهج انفصالي لا يوجد في الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد ـ ونحن على يقين من الأمر ـ لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفي بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاما تاما . وبالله التوفيق .

— ١٠ —

التصوف والتحلل من الشريعة الاسلامية

(٣)

فتوى للامام الغزالى(١)

كتب له بعض الزائغين : ما قوله ، متع الله المسلمين ببقائه . ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ، ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفيائه وأوليائه ، فى قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك فى جميع الأوقات والأحوال ، متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

مع كون ظاهره معموراً ، بأحكام الشرع وأداته ، منزهاً عن مآثمه ومخالفاته ، ويجد فى الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه ، أن المقصود من التكاليف الشرعية ، والرياضات التأديبية هو الفطام عماسوى الحق ، كما قيل لـ « موسى » ﷺ .

[أخل قلبك . أريد أن أنزل فيه]

فإذا تم الفطام ، وحصل المقصود بالوصول إلى القربة ، ودوام الترقى من غير فترة ، حتى إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره ، انقطع عن حفظ الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنة ، إلى مراعاة أمر الظاهر .

وهذا الرجل لا ينزع يده من التكليف الظاهر ، ولا يقصر فى أحكام الشريعة ، لكن الاعتقاد الذى كان له فى الظواهر والتكاليف ، تناقص

---

(١) هذه الفتوى ذكرها تاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١هـ فى كتابه « طبقات الشافعية » وهى موجودة فى كتاب « سيرة الغزالى » للأستاذ عبد الكريم العثمان ، وفى المقدمة التى كتبها الأستاذ الدكتور سليمان دنيا لكتاب « فيصل التفرقة » .

وتقاصر عما كان فى الإبتداء من التعظيم لوقعها عنده ، ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة . لا لأجل الخلق ، وحفظ نظرهم ، ومراقبة الله بل صارت إلفاً له ، وإن نقص اعتقاده فيها ، فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

ثم إن عرضت له شبهة :

« أن المقصود من الداعى والدعوة ، حصول المعرفة والقربة ، وإذا حصل هذا استغنى عن الدواعى ، والواسطة » .

كيف معالجتها ؟

فإن قلنا : المعرفة لا تنتهى أبداً ، بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعى أبدا لا محالة .

فربما قال : الداعى قد بيّن ما احتيج إلى بيانه ، وشرح معالم الطريق ، وذهب .

فلو احتاج السالك إلى مراجعته فى زوائد وإرادات ، لم تمكن المراجعة فى هذه الحالة .

فيقول :

ما هو طبيب علتى فى هذه الحالة ، لأنه غاب عن إمكان المراجعة فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافى بيانه :

الجواب : وبالله التوفيق : ينبغى أن يتحقق المريد هنا أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض ، الفطام عما سوى الله ، والتجرد له ، فهو مصيب فى ظنه أن ذلك مقصود ، ومخطىء فى ظنه أنه كل المقصود ، ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى فى الفرائض التى استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام ، تقصر بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن ، مثل رجل بنى له أبوه ، قصرا على رأس جبل ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة ، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، أن لا يخلى هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره .

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب من البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة .

فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال لاشك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته ، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيِّقَ علىَّ المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش،ظهر من بعض ثقب القصر حية هائلة ،وضربته ضربة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان للأبية بالوصية بالحشيش غرضان .

أحدهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لاسر وراء معلومه ومعقوله ، كما قال تعالى :

[ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ] .

وقال [فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ] .

والمغرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه ، فهو منتف في نفسه .

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمى كذلك القصر ، وأنه معشش حيات وعقاب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة : المكتوبات ، والمشروعات .

بقوله سبحانه :

« إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا] .

وقوله تعالى :

[كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ] .

فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة فى الرقية تؤثر بالخاصة فى استخراج الحيات ، بل فى استسخار الجن والشياطين .

وبعض الأدعية المنظومة المأثورة تؤثر فى استمالة الملائكة إلى السعى فى إجابة الداعى ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته ، وإنما يدرك ذلك « بقوة النبوة » إذا كوشف السر بها من اللوح المحفوظ .

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد ، وسجودين ، وعدد مخصوص ، وألفاظ معينة من القرآن ، متلوة مختلفة المقادير : عند طلوع الشمس ، وعند الزوال ، والغروب ، تؤثر بالخاصة فى تسكين التنين المستكن فى قالب الآدمى الذى يتشعب منه حيات كبيرة الرءوس بعد أخلاق الآدمى ، يلدغه وينهشه فى القبر ، متمكنا من جوهر الروح وذاته ، أشد إيلاما من لدغ مكن من القالب أولا ثم يسرى أثره إلى الرح .

وإليه الإشارة بقوله ﷺ :

[يسلط الله على الكافر فى قبره تنين ، له تسعة وتسعون رأسا صفته كذا وكذا . . .] الحديث .

ويكثر مثل هذا التنين فى خلقة الآدمى ، ولا يقمعه إلا الفرائض المكتوبة ، فهى المنجية من المهلكات ، وهى أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة .

[وَمَا يَعْلَمُ جُنُود رَبِّكَ إلا هُوَ] .

* * *

فإذن فى التكليف غرضان :

أدرك [هذا المغرور] أحدهما ، وغفل عن الآخر .

وقد وقع لـ « أبى حنيفة » مثل هذا الظن فى الفقهيات ، فقال :

« أوجب الله فى أربعين شاة ، شاة ، وقصد به إزالة الفقر ، والشاة آلة فى الإزالة ، فإذا حصل بمال آخر ، فقد حصل تمام المقصود » .

فقال « الشافعى » رضى الله عنه :

« صدقت فى قولك : إن هذا مقصود ، وركبت متن الخطر فى حكمك بأنه لا مقصود سواه ، فبم تأمره : إذ يقال له يوم القيامة : كان لنا سر فى إشراك الغير الفقير ، مع نفسه فى جنس ماله ؟ كما كان من يرمى سبعة أحجار فى الحج يؤدى بدله خمس لآل ، أو خمس أكبر إذ لم يقبله .

وإذ جاز أن يتمحض التقييد فى الحج ، وأن يتمحض المعنى المعقول فى معاملات الخلق فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً فى الزكاة ، فتكون إزالة الفقر معقولة ، والسر الآخر غير معقول » .

* * *

وزاد « أبو حنيفة » على هذا فقال :

« المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء ، فلا فرق بينه وبين ترجمته بكل لسان ، وبين قوله « الله أعظم »

فقال : « الشافعى » :

« ومِمَّ علمت : أنه لافرق فى صفات الله بين « العظمة » و « الكبرياء » ؟
مع أنه تعالى يقول :

« العظمة » إزارى و « الكبرياء » ردائى . و « الرداء » أشرف من « الإزار » ، وهلا استنبطت مقصود « الخضوع » من « الركوع » ، وأقمت مقامه السجود ؟ .

لأنه أبلغ منه الاستكانة .

فإن قلت : لعل لله سراً فى الركوع خاصة ، سوى مافهمناه .

فَلِمَ يستحيل أن يكون له سر فى كلمة « السلام » فلا يقوم مقامه « الحديث » وكل خطاب للآدمى ، وأن يكون له سر فى القرآن المعجز ، ولا يقوم مقامه غيره ، وقد أقام الترجمة مقامه ، وأن يكون له سر فى الفاتحة ، وقد أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معانى القرآن ، وتأثر القلب ، لا حروفُه وأصواته ؛ فإنها آلات فهلا قال : والمقصود من حركة اللسان تأثر القلب ، فليكف عن القراءة للجلوس مع الله تعالى على هيئة الإجلال والذكر ، والسؤال ، بصورة الصلاة .

* * *

وجميع ماذكر « أبو حنيفة » بطلانه مظنون غير مقطوع .

أما إقامة القراءة بالقلب ، مع ترك حركة اللسان ، وملازمة الذكر ، مع ترك الركوع والسجود وصورة الصلاة ، فمقطوع ببطلانها بالإجماع ، وهذا انجر به ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ، ومخالفة الشرع القاطع .

فإذا كان المبتدئ فى المعرفة يجرد المعانى عن الصور ، ويطرح الصور فيطفئ نور معرفته نور ورعه ، فيثور عليه التنين فى قبره ، فيتعجب منه

ويبدوله من الله مالم يكن يحتسب ، فإذا أصابته ضربة التنين قال : ما هذا ؟ فيقال : إنما كان ترياق هذا التنين صور الفرائض المكتوبة وإليه الإشارة بما يروى :

« إن الميت يوضع فى قبره . فتأتيه ملائكة العذاب من جهة رأسه فيدفعها القرآن فتأتيه من جهة رجليه فيدفعها الحج . . . » الحديث .

فإن أصر هذا المغرور على جهالته ، وقال : من بلغ رتبة الكمال ، كما بلغتُ أمن هذا التنين وطهر باطنه عنه ، فيقال له : إنك مغرور فى أمنك :

[فَإِنَّهُ لا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ] .

فبم تأمن أن يكون التنين مستكنا فى صميم الفؤاد ، استكنان الجمر تحت الرماد ، أو استكنان النار فى الرماد ، وإن مات فيعود حياً فإن منبته ومنبعه هذا القالب الذى هو مظنة الشهوات والصفات البشرية . وقلع الحشيش لا يؤمن عودة مرة أخرى بأن يتجدد نباته مهما كانت الأرض معرضة لانصباب الماء إليها من منابعها .

فكذلك القالب مادام مصبا لواردات المحسوسات والشهوات ، لم يؤمن فيها عود النبات بعد الانقطاع والانبتات .

* * *

وننبه على هذه المعرفة بالتأمل فى ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال « إبليس » وأنه كيف وُصف بأنه كان معلم الملائكة ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد . اغتراراً بما عنده من العلم وغفلةً عن أسرار الله فى الاستبعاد ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته ، وفطنته وتمسكه بمعقوله ، فى كونه خيراً من آدم عليه السلام .

فنبه الخلق بهذا الرمز ، على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، وكياسة ناقصة .

الثانى : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركوبه نهياً واحداً ، ليعلم أن فى ركوب النهى إبطال الكمال لخالقه .

الأمر الثالث : حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا المغرور لعله يقول : انه لم تسلم له رتبة الكمال .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يزل يلازم الحدود ، ويواظب على المكتوبات إلى آخر انفاسه ، بل زيد فى فرائضه وأوجب عليه التهجد ، ولم يوجب على غيره ، وقيل له :

[يَاأَيُّهَاالمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إلا قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً] .

وانما أوجبت عليه هذه الزيادة ، لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها نفاسة وشرفا ، ينبغى أن تزداد حصنها احكاما وعلوا ؛ فلذلك قيل فى تعليل إيجاب التهجد :

[إنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً إن نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وطْئاً وأَقْوَمُ قِيلاً] فتبين له أن هذه الصلوات هى حصن الكمال فلا يبقى إلا به .

* * *

ولعل هذا المغرور المعتوه يقول : إنه كان يواظب عليها إشفاقا على الخلق لأجل الاقتداء ، لا لحاجته إليه فى حفظ الكمال .

فيقال له :

فلم زاد عليه فى التهجد وجوبا ؟

هلا قال : إن مبلغ درجة النبوة، يستغنى عما يحتاج إليه غيره ، ولو قال، لقبل منه ، كما قبل منه ، أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ما شاء ، فإنه بقوة

النبوة يقوى على العدل مع كثرة النساء . كما قبل من المدرس أن يأمر تلامذته بالتكرار ، والتسهد ليلا ، وهو ينام .

ويقول : إنى بلغت درجة استغنيت عن ذلك .

وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

ولعل هذا إذا اختاره ضحك الشيطان وسخر منه ، وقال له : أنت أكمل من النبي والصدّيق ، وكل من واظب على الفرائض ، وعند هذا يقطع الطمع من صلاحه ، فهو ممن قيل فيهم :

[وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا]

« مسألة »

أما ماذكره من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القربة التى نالها، والكمال الذى بلغه فهو كذب صريح ، ومحال فاحش قبيح ، لأن التكاليف قسمان:

أمر و نهى

فأما المنهيات : مثل الزنا ، والسرقة ، والقتل ، والضرب ، والنميمة ، والكذب ، والقذف .

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال ؟ وكيف يحجب عن القربة ؟ والكمال كيف يكون موقوفا على ركوب هذه القاذورات ؟

وأما المأمورات : فكالزكاة ، والصوم ، والصلاة .

فكيف تحجبه الزكاة ، ولو أنفق جميع ماله ، فقد دفع السوء عن نفسه ؟

ولو صام جميع دهره ، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ؟ فما الذى يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار ، فى شهر واحد ، هو رمضان

وأما الصلات فتنقسم إلى :

أفعال و أذكار

وأفعالها : قيام ، وركوع ، وسجود .

ولا شك فى أنه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة ؛ فإنه إن لم يصل ، فيكون إما قائما ، أو قاعدا ، أو مضطجعا .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القربة ، ما هو سبب القربة ؟ قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم :

[وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ]

ومن عشق ملكا ذا جمال ، فإذا وضع على التراب بين يديه ، استكانة له ، وجد فى قلبه مزيج رَوْح ، وراحة ، وقرب .

ولذلك قال ﷺ :

[وجُعلت قرة عينى فى الصلاة] .

فاستدامة حال القربة واستزادتها فى السجود ، وأيسر منـــه فى الاضطجاع والقعود .

ومهما ألقى فى قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجا من حال إبليس ، حيث ألقى فى نفسه أن السجود بحكم الأمر ، سبب زوال قربته ، وكماله .

فكل ولى سقط من درجة القرابة ، إلى درجة اللعنة ، فسببه ترك السجود ، ومقتداه وإمامه إبليس .

وكل ولى أسعد بالترقى إلى درجات القرب ، قيل له :

[وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ] .

ومقتداه وإمامه الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولا ينبغى أن يتوهم الولى الخالص ، عن خداع إبليس ، ما دام فى هذه

الحياة ، بل لاينجو عنه الأنبياء . . . .
. . . . . غير أنهم محفوظون ، كما قال تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ إلاّ اذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطان في أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِه ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] .

وأما أركان ، الصلاة ، فتكبير ، وفاتحة ، وتشهد ، لا فريضة إلا هذا ، فما وجه الضرورة فى قوله :

«الله أكبر»،وفى «الحمدلله» والالتجاء إليه،واستعانته ، وطلب الهداية الى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفاتحة .

وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى .

وإن صح ما يقوله مثلا ، وفى كل يوم آلاف نفس ، فليصرف هذه الأنفاس المعدودة ، الى الذكر والسجود ، ولينقص هذه اللحظات من درجات كماله ، ليأمن بهذه المكتوبات من ضر التنين الذى لايعتد بشر سواه ، ويتخلص من خطر الخطأ فى هذا الاعتقاد .

ولا شك فى أن الخطأ ممكن فيه ، إن لم يكن مقطوعا به .

وان قال : انّ عزوف القلب ، الى حفظ ترتيب الأفعال ، والأذكار ، هو الذى يشغلنى عن درجة القرب ، فهو دعوى محال ؛ لأن الهدى لا يحتاج الى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، اذا حفظ شيئاً مرة يناسب حاله ، لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه والحاحه ، بل يجد من نفسه فى ذلك هزة ونشاطا .

فكيف لا تكون قرة عين العبد فى مناجاة محبوبة ، وخدمته التى رسمها وارتضاها له ؟

« مسألة »

﴿ معنى ارتفاع التكليف ﴾
« عن الولى »

بل معنى ارتفاع التكليف عن الولى ، أن العبادة تصير قرة عينه ، وغذاء روحه ، بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون عليه كلفه فيه .

وهو كالصبي يكلَّف حضور المكتب ، ويُحمل على ذلك قهرا ، فإذا اكتمل بالعلم ، صار ذلك ألذّ الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن فيه كلفة .

وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ ، محال ، لأنه يأكله بشهوة ويلتذ به ، فأى معنى لتكليفه ؟

فإذن تكليف الولى محال . والتكليف مرتفع عن الولى بهذا المعنى ، لا بمعنى أنه لا يصوم ، ولا يصلى ، ويشرب ، ويزنى .

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقبيل قدميه ، والتواضع له ؛ لأن ذلك منتهى شهوته ولذته ، فكذلك غذاء روح الولى ، فى ملازمة ذكره ، وامتثال أمره ، والتواضع له بقلبه ، لا يمكنه إشراك القالب مع القلب فى الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فيكون ذلك كمالا للذة الخضوع والتعظيم ؛ حتى يشترك فى الالتذاذ قلبه ، وقالبه ، كما قيل :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر

أى ليدرك سمعى لذة اسمه ، كما أدرك ذوقى طعمه .

بل تنتهى لذة الولى من القيام لربه قانتا مناجيا ، إلى أن لا يدرك الورم فى القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فيقول : أفلا أكون عبداً مشكوراً ؟

« مسألة »

هل يسقط وقع العبادة من القلب بتكلف

« المواظبة عليها »

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها ، وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه .

لو لم يعتقد أنه لافرق بين وجودها وعدمها ، فى حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع مهلكات الباطل ، وجوّز أن يكون لله تعالى سر فيها ، ليس يطلع عليه هو ، فعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت خاصيته سر ، هو لا يطلع عليه ، فعبادته باطلة .

بل إيمانه بالإلهية ، والنبوة ، تخيل باطل ؛ فإنه إذا لم يجوّز فى كمال قدرة الله تعالى سرا بعينه من الأسرار ، وخاصية من الخواص فى الأعمال والأذكار ، فليس مؤمناً بكمال القدرة ، ويرى القدرة قاصرة على قدرة عقله وهو كفر صريح .

وإن جوّز ذلك ، وإن لم يكن اعتقد أنه لم يكلف به ، فهو كافر بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة ، فإنه صلى الله عليه وسلم ، بلّغ قوله تعالى :

[إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً] .

وفهم الصحابة ، وأهل الإجماع ، وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء ، فإن شك فى إيجاب الرسول ، فليتأمل القرآن والأخبار .

وإن شك فى قدرة الله تعالى على نفسه فى الأعمال والأذكار ، تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه الكمال ، وكالحراسة على المهلكات الباطنة

فليرجع إلى نفسه ، وليطالبها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل ، أو نظره ؟ وأنه كيف يعتقد ذلك ويرى فى عجائب صنع الله تعالى ماهو فرع منه ؟

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة عشر عدداً من حساب الجمّل ، إذا أثبت رقومه على خزف ، لم يصبه ألم ، بشرط مخصوص .

د	ط	ب
ج	ه	ز
ح	ا	و

ولو أعطى المرأة التى تعذرت عليها الولادة عند الطلق سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة ، وأنه يؤثر بخاصية تقصر عقولين الأولين والآخرين عن إدراك وجه مناسبته .

ويكثر مثل هذا فى عجائب الخواص .

فمن أين يستحيل أن يكون لنظم الكلمات الإلهية فى الفاتحة — مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود ، والقعود فإن كل واحد عمل صنف من الملائكة — خاصية فى النجاة ، الأخروية أوفى حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التى تلدغ فى القلب ، لدغا أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو مؤثراً فى سعادة الآدمى بوجه آخر من الوجوه ، يقصر العقل عن إدراكه .

فمن لم يؤمن بإمكان هذا ، فهو عديم العقل والإيمان جميعاً .

« مسألة »

هل يستغنى المرء عن وسيلة الوصول إذا وصل

أما قوله : المقصود المعرفة ، والاستواء على طريق السير إلى الله تعالى . فقد استوى هذا السالك على الطريق ، وعرف الله ، وكان التكليف

وسيلة الوصول إلى هذا المقصود ، وقد وصل واستغنى عن الوسيلة والمرشد وإن احتاج فقد توفى المرشد وتعذر مراجعته .

فهذا أيضاً يُـفهم جوابه مما سبق ، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه أن ما ليس حاصلا فى علمه ، فليس حاصلا فى نفسه ، وهو كعجوز ظنت أن ما تخلو عنه حجرتها تخلو عنه خزانة الملك ومملكته ، أو كمسلمة ظنت أنه ليس فى العالم سماء الا سقف بيتها ، ولا أرض إلا عرصة بيتها .

وهذا جهل عظيم ، فإن جميع ماوصل إليه الأولياء . بالإضافة إلى مقدروات الله تعالى أقل من قطرة فى بحر وإن سلم له وصوله درجة الكمال فيجوز أن تكون صورة الصلوات الخمس بطريق الخاصية ، سبباً للترقى إلى درجات الكمال التى نالها ، أو يكون سبباً لبقاء الكمال ، أو دوامه ، أو يكون لرسوخه حتى لايتزلزل فى سكرات الموت .

فإن لم يواظب عليها ، فعساه يودعه الكمال عند الموت ، ويقال له : إنه إنما كان يثبت هذا ، إذا عصفت رياح الموت بالمسامير الخمس ، التى هى المكتوبات ، وكان يستحكم بها ، فلما خلا من المسامير ، تزعزع وانقطع . فقد خبت وخسرت إذا فرحت بما عندك من العلم ، وسيقال لكم يوم القيامة : معاشر أهل الإباحة .

[ماسلككم فى سقر ؟]

فتقولون :

[لم نك من المصلين]

فعلاج هذا المغرور ، الضعيف العقل ، المريض القلب ، أن يتأمل هذه الأمور ، ويجوّز الخطأ على نفسه ، والسلام .

— ١١ —

قضية التصوف

إنكار التصوف

إن الذين ينكرون « التصوف » ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب. ذلك أن النزاع بين « الفقهاء » و « الصوفية » قديم قدم « التصوف » نفسه، ورجال « الظاهر » على وجه العموم ينفرون من « الصوفية » ويحاربونهم حرباً لا هوادة فيها.

والحرب قائمة أيضاً بين « الصوفية » ومن يتخذون العقل مقياساً لآرائهم ويرون أنه وحده الهادى إلى الرشاد.

ولم يهدأ الصراع قط بين « الصوفية » وغيرهم - فقهاء كانوا أو عقليين - على مر الزمن.

ماهى مآخذهم على « التصوف »؟

أولا: يرى « الفقهاء » - ويشاركهم فى هذا الرأى كثير من الباحثين -: أن « التصوف » دخيل على الإسلام: إذ ليس فى الإسلام إلا التقوى، والورع، ونوع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة ... وقد ذم القرآن الرهبانية، ونفر منها الحديث الشريف، قال تعالى:

« وَرَهبانيَّة ابتدعُوها، ما كتَبْنَاها عَلَيْهِم إلا ابتغاء رِضْوان الله فما رَعَوْها حَقَّ رِعَايتها ... » الآية.

وقال رسول الله ﷺ: « لا رهبانية فى الإسلام »

ثانياً: الأدلة على وجود الله، ووحدانيته، وقدرته، وإرادته، موجودة فى القرآن الكريم، فى وضوح لا لبس فيه، فإذا ماتركناه، وذهبنا نلتمس

سواها فى متاهات « التصوف » ، فإننا لا نأمن أن نضل فى مجاهل الطريق .

ثالثاً : « التصوف » ليس فى متناول الجميع . فهو إذاً « أرستقراطية » تتنافى مع روح الإسلام « الديمقراطية » . . .

ولأن « التصوف » ليس فى متناول الناس جميعاً ، فهو إذاً تكليف بما لا يطاق ، والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

رابعاً : « التصوف » ضعف ، والإسلام قوة والله سبحانه وتعالى يقول : « وَأعِدُّوا لهم مَا استطعتم مِنْ قُوة ومن رِباط الخيل » ، والجهاد باب من أبواب الإسلام لا يتلاءم مع صوم النهار وقيام الليل .

أما العقليون : فإنهم يرون أن الله — سبحانه وتعالى — منحنا العقل لنهتدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه — كما يفعل « الصوفية » — فقد احتقرنا أجل نعمة وهبها الله لنـا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين فى محيط « ما وراء الطبيعة » ، وهم يبرهنون على وجود الله — عقلياً — ويرون فى براهينهم غناء ودقة ، ويقيناً لا لبس فيه .

وقد حث الله فى القرآن على استعمال العقل . والآيات التى تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هى أهم ما يأخذه منكرو التصوف على « التصوف » ، و « الصوفية » وأما ماعداها مما يتهكمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التى يلصقونها بـ « التصوف » وليست منه ، فإنا نضرب عنها صفحاً ؛ ذلك أننـا نتحدث عن « التصوف » الحقيقى و « الصوفية » الحقيقيون .

تحديد موطن النزاع :

ونريد الآن أن نبين — فى إيجاز — بعض ما يراه « الصوفية فى هذه

الاعتراضات ، لنتبين الحق فى هذا الغموض والاضطراب ، والخلط الذى يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لايحتاج — فى نظر الصوفية إلى كدالذهن وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهدنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة فى نظر الصوفى ، وإذاً ، فإنه لا يؤخذ على الصوفى أنه يذهب إلى طرق خفية لينتهى من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله .

ولكن البشرية — شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة — لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب فى إلحاح . وفى قلق ، وفى تحمس جارف ، ما وراء إثبات وجود الله والنفس الإنسانية هكذا خلقت : فكلما منح الله الإنسان عقلا كبيرا ، وذكاء حادا ، ونفساً طلعة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل فى البحث فيما وراء الطبيعة .

إن وجود الله ووحدانيته ، وكونه عالما ، مريداً ، قادراً ، كل هذه مسائل هينة ، ولو وقفت عندها النفوس لما كان هناك فلسفة .

ولما كان علم الكلام .

ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة .

ولما كان التصوف .

ولكن النفوس لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك ، ولن يتأتى لها — عن رغبة أو رهبة — أن تقتصر على ذلك ! !

المشاكل التى يراد حلها :

كيف خلق الله العالم ؟ أخلقه عن العدم المطلق ؟ فكيف إذن ينتج شيء من لا شيء ؟ .

إن شيئاً من لا شيء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته . .

أم خلقه من مادة كانت موجودة : فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان : الله ، والمادة .

والله لا نهائى الذات : ومقتضى هذا أن لا يخرج عن ذاته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو كل شيء فى كل شيء . وبهذه النظرة يخاطب « شـلى » الله — سبحانه وتعالى — فيقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التى يلاعبها النسيم ليست إلا بضعة منك : (جزءاً من أجزائك) . كلا ، ولا أحقر دودة تسكن القبور ، وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك فى حياتك السرمدية » .

ويقول : « إن هذه الروح التى توجد فى كل مكان ، بها يحيى كل موجود ، وهى هو »[1] .

أحق هذا ؟ أم أن ذات الله لا تتضمن أرضا ولا سماء ، ولا براً ولا بحراً ، فهى ، إذن ، محدودة : لأنها ما عدا هذا الكون .

ثم إن الله — زيادة على ذلك — لا يمكن أن يوجد فى كل مكان .

والله عالم .

أهو عالم بما كان على أنه كان ؟ وبما سيكون على أنه سيكون ؟ وبما هو كائن على أنه كائن ؟

---

(١) عن مبادىء الفلسفة ، ترجمة « الدكتور أحمد أمين » .

أم أنه عالم بما كان وبما هو كائن على أنه سيكون ؟

أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟

أيسيطر الزمن على علم الله ؟

أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه فى حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتأتى لنا حقاً أن نفهم أن الله فى حاضر لا يزول ؟ مع بداهة شعورنا بالماضى والحاضر والمستقبل .

والله عالم — كما قلنا — أهو عالم بذاته فحسب لأن علمه فى شرفه وسموه وكماله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو ؛ وليس ذلك إلا ذاته — سبحانه وتعالى —

أم أن علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات : لأنها تافهة لا قيمة لها ، والله منزه عن أن يتعلق علمه بالتافه ؟

أم علم الله يتعلق بذاته وبالكليات ، وبالجزئيات ، على الرغم مما فى الجزئيات من نقص وتفاهة ، ومن مناظر تشمئز منها النفس ويعافها النظر ؟

والله قادر . أهو قادر على كل شىء ؟ أقادر هو على الجمع بين الضدين مثلا ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل؟ أم أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله ؟

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيتصف إذن بالكمال ؟ أم أن قدرته لا تتعلق بالمستحيل — كما يقول علماء الكلام — معتقدين أنهم بذلك قد حلوا الإشكال ؟

والله مريد .

أيريد الخير والشر ؟ فلم الحساب والعقاب أو المثوبة ، إذن ؟

وكيف يريد الشر ؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة الشر فى بنى البشر تعتبر نقصاً .

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر فى هذا العالم رغماً عنه ؟
أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريداً ؟
أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟
إن رضاءه بالشر يتنافى مع كماله .
وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟
أيحب الله أن يعصى ؟ أم أنه يعصى رغماً عنه

وصفات الله عامة ، مطلقة ، شاملة ، لا نهائية : إنه رحمن رحمة مطلقة لا نهائية ، ورحمته وسعت كل شيء ؛ وهو جبار ، ذو جبروت لا نهائى ولطيف لا حد للطفه .

فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق ، مع أن البداهة تقضى بأن تنفى كل صفة منهما وجود الأخرى ؟ وإنه لمن الرائع حقاً : أن نرى ما يريد أن يراه الشاعر « اسماعيل صبرى » حينما خاطب الله قائلا:

وَمُرِ الوجودَ يَشِفُّ عنك لكى أرى غضبَ اللطيفِ ورحمةَ الجبار

أيمكننا أن نرى حقاً غضب اللطيف الذى لا نهاية للطفه ؟ ورحمة الجبار الذى لا نهاية لجبروته ؟

والله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ أن صفاته كلها مطلقة شاملة ، فهل اسماعيل صبرى محق إذاً حينما يقول :

ياربّ أينَ تُرَى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار
لم يُبْقِ عفوُك فى السماوات العلا والأرضِ شبراً خالياً للنار .

وكيف يُلقِى اللهُ بالمعرفة إلى رسله ؟ ، بأى لغة يخاطبهم ؟ وكيف ينزل « الملك » على رسول الله ، فيراه ويسمعه فى حين أن من كانوا معه لا يرونه ولا يسمعونه ؟ !

ومن أين يأتى « الملك » ؟ ، أمن السماء ؟ ، ولِمَ ؟ ، مع أن الله فى كل مكان !

إن مشكلة الوحى ، هى الأخرى ، من المشاكل التى استنفذت الكثير من المداد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ ، أحياة أخرى جسمانية ، نأكل فيها ، ونلهو ، ونلعب ، ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه فى حياتنا الدنيا العابرة : من عبادة ومن طاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة !

أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحانية ، تأتلف فيها المادة بالروح ، ائتلافاً منسجماً متناغماً .

إن الذاهبين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة فى دقة دقيقة ، وفى تحديد محدّد .

والقرآن يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسى روحانى ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحانى بحت .

وما هدف الله فى إيجاد هذا العالم ! أخلقه ليعبده : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، أم خلقه ليعرف ، كما قيل : « كنت كنزاً مخفياً فخلقت الخلق ، فبي عرفونى » .

إن كمال الله غنى عن أن يكون فى حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون فى حاجة إلى أن يعرف : « يَا أَيُّها الناس أنتُم الفقراءُ إلى الله ، وَالله هُوَ الغنىُّ الحميدُ » .

أخلق الله العالم اعتباطاً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباطاً ، : « أفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلقناكم عَبَثاً ؟ » تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

والحكمة : إنما هى تعبير عن الغرض أو الهدف أو الغاية ، وذلك ينبىء عن الحاجة ، والله تعالى منزه عن الحاجة .

نعود فنتساءل : لم أوجد الله العالم ؟

والشيخ محمد عبده يذكر بعض المشاكل التى أثارت العقل ، وجعلته ينشط إلى البحث والنظر ، ويعدها من المتشابه . قال رحمه الله فى رسالة التوحيد :

« جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وُصِفَ به فى مخاطبات الأجيال السابقة فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم ، أو فى الجنس : كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر .

وعزا إليه أموراً يوجد مايشبهها فى الإنسان : كالاستواء على العرش ، وكالوجه ، واليدين .

ثم أفاض فى القضاء السابق ، وفى الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد ، والوعيد ، على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر فى الثواب والعقاب إلى مشيئة الله . وأمثال ذلك .

ويقول : وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه . .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هذه المشاكل لم أخترعها اختراعا ، ولم أبتدعها ابتداعاً . وإنما هى موجودة ، تصادفك فى الفلسفة ، وتصادفك فى علم الكلام ؛ وهى موجودة قديماً ، وموجودة حديثاً ، وهى بعض من كل .

كيف نصل حقيقة إلى الإجابة عليها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأنها ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الحواس والملاحظة ، والتجربة ، والعلم الحديث ، وما فيه من طبيعة وكمياء ، أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ماوراء الطبيعة :

أمرد ذلك إلى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقاً عن ذلك ؟ أيصل العقل إلى كشف مساتير ما وراء الطبيعة ، واختراق حجب ما وراء المادة والصعود إلى الملأ الأعلى ؟

وعقل من ؟ أعقلي أنا ؟ أنحتكم إلى عقلي وهو — فيما أرى — ناضج ؟ وسيحلها دون أن يكون مسيَّراً بهوى ، أو بعصبية . أيُرضى بعقلي حكما ؟

أم نحتكم إلى عقلك أنت أيها القارىء العزيز ؟ وهو فيما ترى ناضج ؟ وسيحلها دون أن يكون مسيَّراً بهوى ، أو بعصبية .

ولكن إمام « الشيعة » — بحسب نظرهم — معصوم ، وهم يلجأون إليه فيما ادلهمَّ من الأمور ، وسوف لايرضون بغير حكمه بديلا ، وهم ملايين عدة ، أنستلهمهم الرشد فى هذه المسائل ؟

إنهم سوف لا يرضون بحكمنا ! أفننزل اذن على حكمهم ؟ واذا نزلنا على حكمهم ، أيوحِّد ذلك بين بنى البشر فيحصل الاتفاق المطلق على هذه المسائل ؟

ان الكاثوليك يرون أن البابا معصوم ، انه على الأقل — فيما يرون — معصوم فى الأمور الدينية ، ورأيه هو الفيصل فى كل ما يتعلق بمسائل الدين ؛ أترضى آراؤه البوذيين ، أم المسلمين ، أم اليهود ؟

هل حل هذه المسائل من اختصاص القبعات ، أم من اختصاص العمائم ؟

أحلها محصور فى السربون ؟ أم هو من اختصاص الأزهر ؟

ان هذه المسائل « شغلت الرءوس على اختلاف أنواعها : من ذوات القلانس من قدماء المصريين ، إلى حملة العمائم ، إلى لابسى القبعات السود ؛ إلى أرباب الضفائر ، الى ألوف تصببت عرقا من البحث » [1] .

---

(١) من مبادىء الفلسفة . ترجمة « الدكتور أحمد أمين »

إلى أى هؤلاء نلجأ فى حلها ؟ لقد :

تحيرت البذورُ ماذا تكونُ وضلت بوادى الظنون الحضتر

قد تقول : إنها من اختصاص الفلاسفة ؛ ويجب أن نلجأ إذن إلى أهل الاختصاص .

أنلجأ إلى عقل « أفلاطون » أم إلى عقل « أرسطو » .

وهل نلجأ إلى عقل « بيكون » أم إلى عقل « ديكارت »

هل نلجأ إلى عقل «فيلسوف» حسى ؟ أم إلى عقل «فيلسوف» مثالى ...؟

أم نلجأ إلى علماء الكلام ؟ وأيهم ؟ : ألنظام ، وقد كان حاد الذكاء متوقد الذهن ، صاحب منطق وجدل ؟ .. إن « ابن تيمية » لا يرضى لنا ذلك « وابن تيمية » رجل واسع الإطلاق ، حاد الذكاء ، متوقد الذهن فهل نتبعه

أم نتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث ؟ فهل نتبع « الشيخ محمد عبده » ، أم نتبع «الشيخ عليش» ؟ إن كلا منهما رجل فاضل ، واسع الإطلاع ولكنهما لا يكادان يلتقيان فى شىء من آرائهما سواء فى ذلك الوسائل والأهداف ؛ فإلى عقل أيهما نحتكم ؟ . .

وبعد كل ذلك أليس رأى « كانت » هو الحكمة كل الحكمة حينما يقول « إن عقل الإنسان مركب تركيباً يؤسف له ، فإنه مع شغفه بالبحث فى مسائل لا تدركها حواسنا ، لم يستطع أن يكشف عن معمياتها » .

أما الإمام « الرازى » فإنه يقول فى عجز العقل :

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ وأكثر سعى العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا

ومن كلامه الحكيم : « ولقد تأملت الطرق « الكلامية » ، والمناهج « الفلسفية » ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا .

ويقول فى وصيته التى أملاها على تلميذه « ابراهيم » بن « أبى بكر » الأصفهانى : « ولقد اختبرت الطرق « الكلامية » والمناهج « الفلسفية »

فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم » .

والإمام « الرازى » هذا ، هو الذى يقول فيه صاحب « وفيات الأعيان » : « فاق أهل زمانه فى علم « الكلام » ، و « المعقولات » ، وعلم « الأوائل » .

وليس كانت ، وليس الرازى إلا مثلين من أمثلة عديدة تتلاقى فى النهاية مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى فترجو من الله ما يرجو حينما يلجأ إليه قائلا :

يارب أَهِّلْنى لفضلك ، واكفنى شَطَطَ العقولِ ، وفتنة الأفكار

ومع ذلك فهذه المشاكل تقض مضاجع كثيرين من ذوى الإحساس الدينى المرهف ، وتؤرق أعينهم ، وتشغلهم — مصبحين ممسين — ومثلهم فى ذلك مثل إبراهيم — عليه السلام — إذ :

« قال : رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الموتَى ؟

قال : أَوَلم تؤمِنْ ؟

قال : بَلَى ، ولكِنْ ليطمئِنَّ قلبى . . . .

فما هى الوسيلة التى يروون عن طريقها غلتهم ، وتشفى صدورهم .

إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ، والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده عاجز كل العجز كما رأينا سابقاً عن الوصول إلى حلها وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذى عينين : إن الفلسفة منذ عهد سقراط تتخبط وتتعثر، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعقد ، ولا تصل ألبتة إلى نتيجة حاسمة فى أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب ، يحارب بعضه بعضاً ، بل ويكفر رجاله بعضهم البعض .

إلامَ نتجه إذن ؟

إننا إذا نفضنا أيدينا من الحس ، فذلك لأننا لم نجد فيه غناء .

وإذا أعرضنا عن العقل ، فليس ذلك احتقاراً له ، لأننا نستعمله

معترفين بفضله في ميدانه الخاص به ، وإنما كان إعراضنا عنه في ما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه في غير دائرة اختصاصه ،

نعود فنقول إلام نتجه ؟ إن الأمر ليس بهين ! ! وتكشف الطريق الصواب ليس من السهولة بمكان ،

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة :

ولكننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلهمه الخير ونستهديه الطريق الرشاد ، وإذا ما توجهنا إلى القرآن نسترشده فيما أدلهم وخفى ، فماذا نجد ؟

نجد أن القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يرشد ، فى مواطن عدة ، إلى نوع من المعرفه ، ليس طريقه الحس ، وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع فى أبسط صوره وأعمها وأشملها هو الرؤيا . فالقرآن يحدثنا فى سورة يوسف عن عدة رؤى : « إذ قالَ يوسُفُ لأبيهِ يا أبتِ إنى رأيتُ أحدَ عشر كَوكباً والشَّمسَ والقَمرَ رَأيتهُمْ لِى ساجدِينَ » .

ويعتقد والده فى رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدى إليه النصيحة : « يابُنى لا تقصُصْ رُؤْياكَ على إخوتِكَ فيكيدُوا لكَ كيداً » .

وحينما سجن العزيز يوسف « ودَخَلَ معهُ السجن فتيان .

قال أحدهما : إنى أرانى أعصِرُ خمراً .

وقال الآخر : إنى أرانى أحمِلُ فوقَ رَأسى خُبزاً تأكلُ الطير منهُ » .

وذهبا إلى يوسف واستنبآه الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين : « نَبِّئْنَا بِتأويلهِ إنا نراكَ مِنْ المحسِنينَ » ونبأهما يوسف بتأويل الرؤى .

ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك : « وقالَ الملكُ إنى أرى سَبعَ

بقرات سِمان ، يأكلهن سَبْعٌ عِجاف ، وسَبْعَ سنبلات خُضر ، وأخر يابسات ، يا أيها الملأُ أفتونى فى رُؤْياى إنْ كنتم للرُّؤيا تعبرونَ » .

ويفسر « يوسف » تلك الرؤى ، فيرى : أن نفس « الملك » تكشف لها المستقبل ، ورأت الغيب المحجوب ، وعبرت عنه فى صورة رمزية ، ويفسر «يوسف» الرمز قال : تَزْرَعُون سَبْعَ سِنِين دَأَباً ، فَمَا حَصَدْتُم فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ ، إلاّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُون .

ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ، يَأْكُلْنَ مَاقَدَّمْتُمْ لَهُنّ ، إلاّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونْ .

ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَام فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ،

ولما اجتمع شمل « يوسف » بأبيه وأخوته وخرّ له أخوته سجدا :

ذكّر « يوسفُ » أباه برؤيته السابقة وقال : « يا أبت هَذَا تأْوِيلُ رؤياى مِنْ قَبْلُ ، قَدْ جَعَلَها رَبّى حَقّاً » .

والحديث الشريف يذكر . أن الرؤيا جزء من سته وأربعين جزءاً من النبوة .

ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتاب المقدسة .

ولكن « قد قرّب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه — وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه ، كالميت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره . فيدرك الغيب — لأنكر وأقام البرهان على استحالته وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء

مع وجودها وحضورها فبأن لا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة »[1] .

والنبوة ، هي الأخرى ، ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية . إنها ليست تجربة ، وليست منطقاً ، ليست استقراءً ناقصاً أو تاماً ، وليست قياساً من الشكل الأول أو الرابع ، ولكنها وحي من الله .

والقرآن غاص بهذا النمط من المعرفة الإلهية : إنه غاص بذكر الأنبياء الرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم : أعنى الملائكة .

والقرآن يحدثنا أيضاً فى أسلوب قصصى طريف شائق عن العبد الصالح الذى أخذ سيدُنا « موسى » فى البحث عنه جَهْدَه ، حتى وجده وأبدى رغبته فى اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح :

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً .

وألح « موسى » .

وقبل العبد الصالح — فى النهاية — على شروط اشترطها ، ولم يكن فيها رفيقاً « بموسى » أو عطوفاً عليه . . .

وسارا فأخذ العبد الصالح يأتى بأعمال لا تنسجم مع العاطفة ، ولا مع المنطق ، ولا مع العقل ، ولا مع القانون .

ولم يكن موسى ليحتمل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعليل .

وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألاّ يسأله عن شيء ، ولم يجد موسى إلى الصبر سبيلا ، ولم يجد العبد الصالح ـ وقد أخل موسى بالشرط ـ مناصاً من أن يعلنها صريحة واضحة « هَذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ » والقصة

---

(١) الغزالى فى المنقذ من الضلال .

والقصة كلها حرية بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا . فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ :

آتِنَا غَدَاءَنَا ، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا .

قالَ : أَرَأَيت إِذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ ، فإِنِّي نسيتُ الحوتَ ، وَمَا أنسانِيهُ إلا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، واتخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عجَبًا .

قالَ : ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فارْتدَّا على آثارِهِما قَصَصاً ، فوجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنا آتَيْنَاهُ رَحمةً مِنْ عِنْدِنا وَعلَّمْنَاهُ مِنْ لدُنَّا عِلمًا .

قالَ لهُ مُوسى : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟

قالَ : إِنَّكَ لَنْ تستَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ، وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى مَا لمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ! ! ! .

قالَ : ستَجِدُنِي إِنْ شاءَ الله صَابِراً وَلا أَعْصِي لكَ أَمْراً .

قالَ : فإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلاَ تَسْألني عَنْ شيءٍ حَتى أُحْدِثَ لكَ مِنْهُ ذِكْراً .

فانْطَلَقَا حَتى إذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها .

قالَ : أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ! ! لقدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ! ! .

قالَ : أَلمْ أَقُلْ : إِنَّكَ لَنْ تستَطِيعَ مَعِي صَبْراً ؟ .

قالَ : لا تُؤَاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً .

فانطَلَقَا حَتَّى إذا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ .

قالَ : أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لقدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً .

قالَ : أَلمْ أَقُلْ لكَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً ؟

قالَ : إنْ سَألْتُكَ عَنْ شيءٍ بَعْدَهَا فلاَ تُصَاحِبْنِى ، قدْ بَلَغْتَ مِن لدُنِّى عُذْراً .

فانْطَلَقَا حَتى إذا أتَيَا أهْلَ قَرْيَةٍ استَطْعَمَا أهْلَهَا فَأبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ فأقامَهُ .

قال : لوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَليْه أجْراً .

قالَ : هَـــذَا فِرَاقُ بَيْنى و بَيْنِكَ ، سأنَبِّئُكَ بِتَأوِيلِ مَا لمْ تستَطِعْ عَليْهِ صَبْراً .

أما السَّفِينَة فكانَتْ لمساكِينَ يَعْمَلون فى البَحْر فأرَدْتُ أنْ أعِيبَها ، وكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأخُذُ كلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً .

وأما الغُلامُ فكانَ أبوَاهُ مؤمِنَيْنِ فخشِينا أنْ يُرْهِقَهُما طغيَاناً وكُفْراً ، فأرَدْنا أنْ يبْدِلهما رَبُّهما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وأقرَبَ رُحْماً .

وأما الجِدَارُ فكانَ لغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فى المدِينَةِ ، وكانَ تحتَهُ كَنْزٌ لهُما ، وكان أبُوهُما صالحاً فأرَادَ ربُّكَ أنْ يَبلُغا أشُدَّهُما ويَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ؛ وَما فعَلْتُهُ عَنْ أمْرِى ؛ ذلكَ تَأوِيلُ مَالمْ تسطِع عَليْهِ صَبْراً [١] » .

هناكَ إذن طريق للمعرفة ، غير الحس وغير العقل .

ما السبيل إليه ؟

الطريق إلى المعرفة :

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تزكية النفس ،

---

(١) سورة « الكهف » ٦٠ — ٨٢ .

وتطهيرها والإلتجاء إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفيض عليها منه نفحات ، وإلهامات ، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريقٌ صواب :

ولكن الكثيرين يشكّون فى هذا الطريق — طريق البصيرة الذى سبيله التزكى والتطهر — الموصل إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات ، ويتطلبون فى إلحاح الإستدلال على أن هذا الطريقَ صحيح .

ويرون أن النبوة ، والرسالة ، والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة للعادة أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية . فما الدليل إذن على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة ؟ .

إلى هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » لأمثالهم من المعترضين ، قاله فى ساحة « السربون » لأساتذة الجامعة ، وعلماء باريس ، حينما دعوه ليحاضرهم فى « ما وراء الطبيعة » .

« سيتساءل قوم : أمِن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟

إننا لا نتردد فى أن نجيبهم فى وضوح واضح : ليس ذلك ممكناً فحسب ، ولكن ذلك واقع موجود .

سيقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان .

ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر ووجوده ؟ إنه لمن الغريب حقاً أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ،

بدلا أن يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكا إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذى وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه فى قليل أو كثير ما يثور حولها ، من جدل ونقاش .

وإنه لمن البيّن الواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل المعرفة نفسها إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة » .

وهذا الرأى نفسه هو مايراه كثير من كبار المفكرين ، فى كل عصر : إنه رأى الفارابى ، ورأى ابن سينا ، ورأى الشيخ محمد عبده :

يقول الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد :

« أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ؛ فكثير منهم نال حظه من الأنس بمايقارب تلك الحال « حال الاتصال » فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم « المثال » لاتنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ؛ فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدّث به عن الأنبياء — صلوات الله عليهم — ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم ، المتلألئ فى بصائرهم ؛ إلى دعوة من يحف بهم إلى مافيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة .

ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ؛ ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ،ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل

العقول ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة : كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ[1] » .

التصوف أرستقراطية :

مما سبق نتبين : أن « الصوفية » يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه .

وأن العقل وسيله إلى المعرفة ، له ميدانه هو أيضاً .

والبصيرة — التي سبيلها تزكية النفس — وسيلة إلى المعرفة ، لها ميدانها .

ولا صلة لتزكية النفس بالعاطفة . و « الصوفية » أقل الناس ، تأثرا بالعواطف ، على خلاف ماهو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحيانا كلمة القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .

وتزكية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه فى الله ، وهو المقصود بـ « الذكر » وعر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقا خاصا لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التى يجب توافرها فى السالك ، علمنا أن النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان .

ومن هنا يعترض خصوم « التصوف » قائلين :

« التصوف » إذن : « أرستقراطية » .

وهذا اعتراض لا قيمه له : فـ « التصوف » حقاً « أرستقراطيه » .

وطبيعة الأمور تأبى إلا أن يكون « أرستقراطية » ؛ إنه نظام الصفوة

---

(١) رسالة « الشيخ محمد عبده » فى التوحيد ط صبيح ص ٦٩ — ٧٠ .

المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حسًّا مرهفاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء « الملائكة » ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور .

ألديمقراطية أسطورة :

وإذا كانت « الديمقراطية » معناها التساوى فى كل شىء ، فهى أسطورة من الأساطير : فالتساوى لا يوجد فى عالم الطبيعة بحال من الأحوال : إنه لا يوجد بين الحيوانات فى الغاب ، ولا يوجد بين بنى آدم فى المدن ، أو فى القرى .

إن الله لم يسو بين الناس فى ألوانهم ، ولا فى قوتهم الجسمانية ، ولا فى ذكائهم ، ولا فى دهائهم ومكرهم ، ولا فى أرزاقهم وحظوظهم . . ونظام « الطبقات » الذى يسود فى « الهند » ، والذى ننتقده ونشنع عليه إنما هو النظام الواقع فعلا فى جميع أقطار الأرض .

و « الروس » الذين بلغت « الديمقراطية » عندهم حد الفوضى ، فيهم الرئيس والمرءوس ، والسائد بذكائه وقوته ، والمسود بغبائه وضعفه .

و « الإنجليز » فيهم « الملك » و « الأمراء » و « النبلاء » ، وفيهم « عامة الشعب » .

و « أفلاطون » ، وهو « فيلسوف » نابه ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » ، وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف :
ففى « جمهوريته :

طائفة «الإنتاج» وهى الطائفة ذات « المعدة » الشرهة ، والشهوة الغلابة .
وطائفة « الجند » ذات العاطفة القوية .
وطائفة « القادة » معدن العقل والحكمة ، والبصيرة ، والإشراق .

التصوف نهج الخاصة :

« التصوف » « أرستقراطية » ، وهو فى ذلك منسجم مع طبيعة الأمور : وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص ، الذى يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم : ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ؛ وأئمة « التصوف » يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج : طائفة المعدة والشهوة أن ينهجوا نهج السادة المختارين : معدن الصفاء والحكمة .

الناس معادن : على حد تعبير الرسول — ﷺ — : ومعادنهم ثابتة لا تتغير فـ « خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » إن فيهم المعدن الذهبى ، وفيهم المعدن الفضى ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول فى رسالة التوحيد :

« مما شهدت به البديهة : أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ؛ وأن الأدنى منها لا يدرك ماعليه الأعلى ،إلا على وجه من الإجمال ؛ وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ؛ ولا شبهة فى أن من النظريات : عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى مالا يحصره العدد ؛ وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً ، فيسعى إليه ، ثم يدركه ؛ والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ماصار إليـــه ، كأنه من المعروف الذى لا ينازع ، والظاهر الذى لا يجاحد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم بادئ الأمر على من دعاهم إليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته — ظاهراً فى كل أمة إلى اليوم » [١] .

(١) : رسالة التوحيد « للشيخ محمد عبده » ط صبيح ص ٦٧ .

والله سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أن منهم الأنبياء ، ومنهم الصديقون ، ومنهم الشهداء الخ . قال تعالى :

« وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ : مِنْ النَّبِيينَ ، وَالصِّدِّيقِينَ ، والشهداء ، والصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً . ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ ، وكَفَى بِاللهِ عَلِيماً . » النساء ٦٩ — ٧٠

لا يدعو « الصوفية » إلى أن يكون الناس جميعاً متصوفين . و « جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد ، أو أن يطلع عليه إلا واحد بعد واحد » .

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديهية ، لا تحتاج إلى الاستفاضة بيد أن « الصوفية » إذ كانوا لا يدعون الناس جميعاً إلى « التصوف » فإنهم يعملون جَهْدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ؛ إنهم يريدون أن يسود بين جنبات المجتمع جو من الروحانية والرحمة والمحبة ، يجعل الناس إخواناً متعاونين ، متكاتفين .

تفاوت الناس فى فهم الدين :

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو « التصوف » ، فالإسلام دين طائفة محدودة ؛ لا يتيسر لكل إنسان ، فهو اعتراض لا ينسجم مع النزعة العامة عند « الصوفية » .

إن « الصوفية » لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة « الإنتاج » ناجية .

ونحن جميعاً نعلم أن الدين الإسلامى ليس فى متناول جميع الناس بدرجة واحدة : إن إيمان « أبى بكر » — رضوان الله عليه — ليس كإيمان « الحداد »

والرسول — صلى الله عليه وسلم — يمثل تفاوت الطبائع فى الاسترشاد فيقول :

« إن مثلَ مابعثنى الله به من الهدى والعلمِ كمثل غيث أصاب أرضاً : فكان منها طائفةٌ طيبةٌ قَبلت الماءَ ، فأنبتت الكلأَ والعشبَ الكثيرَ ، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء فنفعَ الله تعالى بها الناسَ فشربوا منها وسقَوْا وزرعُوا .

وأصابَ طائفةً منها أخرى إنما هى قيعان : لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ؛ فذلك مثلُ من فقه فى دين الله تعالى ونَفَعَه ما بعثنى الله تعالى به فعلمَ وعَلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلتُ به » .

التصوف قوة :

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هينة عندهم فى سبيل الله إنهم يبذلونها عن رضى لإعلاء كلمة الله ، فهم الذين جشَّموا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التى لم تفتتحها الجيوش الإسلامية

وقد كان لهم الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى « أندونيسيا » وغيرها من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه بالدعاية التى قد لا تجدى .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذى يعيش على الحدود الإسلامية . مكرَّساً حياته لصد غارة الأعداء .

والعبادة والروحانية ، والزهد والورع ، كل ذلك ليس من مظاهر

الضعف ، وإنما هو قوة ؛ وقد كان « غاندى » وحده أشد على الإنجليز من آلاف مؤلفة من الجيوش المناضلة ، وقد كان صوته يهز أرجاء العالم .

يقول ابن سينا عن الصوفى « العارف الشجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت » ا هـ .

« التصوف » روحانية ، والروحانية قوة ، ولا يتمارى فى ذلك اثنان .

* * *

حديث الرهبانية موضوع :

و « لم يعد من الجائز أن يقال إن « محمداً » ﷺ أخرج « المتصوفة » ابتداء من الجماعة « الاسلامية » : إذ لا يخفى على أحد اليوم أن الحديث المشهور : « لا رهبانية فى الإسلام » الذى ذهب « شبرنجر » فى تفسيره هذا المذهب ؛ حديث موضوع .

وليس من شك أنه وضع فى القرن الثالث الهجرى ، على أكثر تقدير ، تحبيذاً ، وتدعيما لتفسير جديد ، للآية السابعة والعشرين ، من سورة « الحديد » ، التى ورد فيها ذكر « الرهبانية » .

وهو تفسير يحرمها ، ويعيذ الإسلام منها .

وكان مفسرو القرون الثلاثة الأولى للهجرة أمثال « مجاهد » ، و « أبى أمامة الباهلى » . . . . ، و « المتصوفة » القدامى الذين عرفوا بالحرص : (أنظر جنيد . دواء الأرواح) ، قد أجمعوا على تفسير هذه الآية تفسيراً يجيز الرهبانية ويمتدحها ، قبل أن يشيع التفسير المعارض ، الذى غلَّبه الزمخشرى على جميع التفاسير »[1] .

---

(١) من دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية ، المجلد الخامس العدد السابع ص ٢٦٧ .

تفسير آية الرهبانية :

أما الآية السابعة والعشرون من سورة « الحديد » فهى : « ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

وهذه الآية ليس فيها إنكار للرهبانية ولا ذم لها ، وإنما الذم والإنكار موجه إلى هؤلاء الذين لم يحافظوا عليها ولم يرعوها حق رعايتها .

يقول « المحاسبى » : وقد اختلف فى هذا الحرف : فقال « مجاهد » : ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله عليهم ، أى كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقال « أبو أمامة » وغيره : ما كتبناها عليهم : أى لم نكتبها عليهم ، ولم يبتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ، فعابهم الله — عز وجل — بتركها ، وهذا أولى التفسيرين بالحق — إن شاء الله — وعليه أكثر علماء الأمة ، فقال الله — عز وجل — : « فما رعوها حق رعايتها ، فذمهم الله تعالى بترك رعاية مالم يفترض ولم يوجب عليهم »[1] .

التصوف ليس دخيلا على الإسلام :

أما أن « التصوف » دخيل على الإسلام ، فيكفينا فى الرد على ذلك أن

(١) الرعاية لحقوق الله ص ٤ — ٥

نذكر ثلاثة آراء . أولهم : للشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وهو فيلسوف مسلم صوفى .

والثانى : للمستشرق الشهير الأستاذ « مَسِّينيون » الذى يعتبر أعظم باحث فى « التصوف » بين المستشرقين فى العصر الحاضر .

والثالث لصاحب كتاب « التبصير فى الدين » وهو معنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

ومؤلفه هو : «الإمام الكامل ، الفقية ، الأصولى المفسر» الاسفراييني .

يرى الشيخ « عبد الواحد » أن « التصوف » « يكوّن جزءً جوهرياً من الدين الإسلامى ، إذ أن الدين يكون ناقصا بدونه بل يكون ناقصا من جهته الساميه ، أعنى جهة المركز الأساسى ، لذلك كانت فروضا رخيصة ، تلك التى تذهب بـ « الصوفية » إلى أصل أجنبى : « يونانى » أو « هندى » أو «فارسى» ؛ وهى معارضة بالمصطلحات «الصوفية» نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغه العربية ارتباطاً وثيقاً :

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى ، لا يحتاج إلى فرض « الاستعارة » ؛ ذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها ، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور[1] » .

ويقول الأستاذ « مَسِّينيون » : وقد بين « نيكولسون » أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها « متصوفة » المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف

---

(١) أنظر كتاب : الفيلسوف المسلم : مكتبة الأنجلو المصرية

المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرُّبهما وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير فى الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم » من « الخوارج » ، و « الروافض » ، و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف » ، و « الإشارات» ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة . والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السُّلَمِى » من مشايخهم قريبا من ألف ، وجمع إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع « القدرية » ، و « الروافض » ، « والخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ؛ والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق ، والتقدير إلى أنفسهم . وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم ، والتوحيد »[1] .

تعليل الإقبال على دراسة التصوف فى العصر الحاضر :

لقد كان أتباع « فولتير » فى القرن الثامن عشر ، وأنصار « رينان » فى القرن التاسع عشر يسخرون من يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس — شرقيون وغربيون — منصرفين عن هذا الميدان ، مقبلين على العلم الحديث ، معتقدين أنه سيحل كل مشكلة

---

(١) التبصير فى الدين . « لأبى المظفر الإسفرايينى » المتوفى سنة ٤٧١ هـ ط « السيد عزت العطار » ص ١١٨ .

فى الطبيعة وفيما وراءها ، ولكن الناس الآن معنيون بالدراسة الصوفية ، فما الذى غير اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يفسر لنا ذلك بأسلوبه الرصين :

« ما الذى غير اتجاه العقل الإنسانى فى القرن التاسع عشر ؟

الذى غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيراً فى دعواه : يدعى أنه يصف ما يحس ولا يزيد .

لا نريد أن نقول : إن العلم أخفق فى تعزية الإنسان وتعمير قلبه وضميره . . . كلا بل نريد أكثر من ذلك . . . نريد أنه أخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقا أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادى » وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة ، فى فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعا ، وكل شعاع هو حركة فى « الأثير » . . . وما « الأثير » ؟ . . شىء كلا شىء . ليست له حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء

فالعلم المادى لا يعرف المادة إلا فى هذه الحدود ، ومن الأدب إذن : أن يتواضع كثيراً ، فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شىء لأنه مقيد بالحواس . وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟

كلا — أيضا — لأن الفكر محدود ككل شىء فى الإنسان .

فلا بد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير لا بد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الإلهام .

وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين . فهذه هى المعرفة التى يتعاون

عليها الحس . والفكر ، والإلهام » اهـ [١] .

* * *

أما بعد : فأرجو أن يكون الحق قد استبان فيما بين الصوفية وغيرهم من وسائل النزاع ، وإنى لعلى يقين من أن نظرة الانصاف ستزيل ما فى نفوس خصومهم من حدة : فيتلاقى الجميع ـ فى رحاب المودة التى يدعو إليها الصوفية ـ إخوانا فى الله متحابين .

وبالله التوفيق والهداية .

(١) من حديث فى الاذاعة .

مشكلة المعرفة الصوفية (١)

— ١ —

يتّسم التاريخ — سياسياً كان أو فكرياً — بفترات ، تبدوا فيها ، الحيوية الجارفة . وهذه الحيوية ، تتركز فى شخص ، أو أشخاص نابغين يلقون بأنفسهم ، فى مجرى الحياة الهادئ الوديع ، فتضطرب الحياة وتموج ، ويعلو موجها وينخفض ، وتصطرع القوتان — قوة الشعب الذى يتبع التقاليد — وقوة المصلحين النابغين — فترة تطول ، أو تقصر ، ثم تنحسر الأمواج ، وتهدأ الأمور ، فإذا بالحيـــاة تأخذ لوناً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، فى قليل أو فى كثير .

ومهما يكن من شيء ، فإن عظماء الرجال — على أى وضع قضوا نحبهم — لا يتركون هذا العالم ، إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحى أبد الدهر .

وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه فى ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطرباً ، وتُشرع نحوه الأسنة ؛ وتتجه إليه السيوف المهندة ، فيدافع ويهاجم ؛ ويغلب أو يُغلب ، ويترك ، على كل حال ، أثراً .

— ٢ —

ونشأ المحاسبي ، وفى العالم الإسلامى قوتان هائلتان تصطرعان :

١ — أهل السنة ، ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل .

٢ — المعتزلة ، ولهم ممثلوهم فى البصرة ، والكوفة ، وبغداد .

وهذا الصراع بين المعتزلة ، وأهل السنة : صراع طبيعى لا يخلو من مثله دين من الأديان :

إنه الصراع الخالد ، بين النصيّين والعقليّين .

---

(١) هذه الكلمة كتبتها بمناسبة طبع كتاب الرعاية للمحاسبى وهى ، وإن كانت كتبت فى مناسبة خاصة ، فإنها ، من حيث الفكرة ، عامة فيما يتعلق بالمعرفة الصوفية .

إنه النزاع الأبدى بين اللذين يقولون :

إن الدين نص تفسره أسباب النزول ، واللغة ، والرواية . والذين يقولون :

إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه .

ويظن بعض الناس — للوهلة الأولى — أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث فى هذه الخصومة :

فالإنسان إما نصى ؛ وإما عقلى ؛ ولا يحتمل الأمر حلا ثالثاً .

— ٣ —

ونشأ المحاسبى ليعلن هذا الحل الثالث :

لقد هاجم المعتزلة هجوماً عنيفاً ، وألف كتاباً خاصاً فى الرد عليهم ، سماه : « فهم القرآن » .

لقد رأى فى نزعتهم العقلية طغياناً ، لا يتناسب ومقام العبودية ، ورأى أن نزعتهم تحكّم العقل فى القرآن وتجعله يسيطر على النص ، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد فى الحقيقة وواقع الأمر . هو العقل . لا الكتب المقدسة . وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ، تتمثل فى دفاعهم المجيد عنه ، ورد هجمات أعدائه ؛ وتأييده منطقياً وعقلياً ؛ فإنه مما لا شك فيه : أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : « ما وراء الطبيعة » فيفسر لنا غامضة ، ويوضح لنا من أمره ما انبهم .

لا بد ، إذن ، أن يخضع العقل للنص .

ومذهب المعتزلة ، إذن ، لا يسير فى عالم : « ما وراء الطبيعة » على النهج الصواب .

— ٤ —

هناك ، إذن ، إفراط وتفريط .

والعبودية الحقة ، فيما يرى المحاسبي : هى المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة ودخل المحاسبي المعركة ، وسلاحه فيها : « عبودية حقة ، وإخلاص لاحد له ، وتقوى تغمر كل الجوارح ؛ ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله وغاياته ، جزئياته وكلياته .

التقوى والعلم ، إذن ، كانا سلاحه فى المعركة .

واحتدم النزاع ، وكان لابد من أن يحتدم ، وثار الفقهاء على المحاسبي وكان لابد أن يثوروا ، فقد كان المحاسبي ينهج فى درسه نهجا آخر غير الطريق العادى التقليدى .

كان يتحدث فى الإخلاص ، وفى الورع . وفى الزهد ، وفى الخشوع الخالص لله .

وكان يتحدث فى محبة الله ؛ والأنس به ، والقرب منه .

وكان يتحدث فى هيبته ، وجلاله وعظمته .

وكان حديثه عذبا ، طلقا ، ساميا ، فكانت تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله من فضل ، فترق قلوبهم ، ويتعاهدون على الاستقامة .

— ٥ —

وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد ، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته فى الازدياد ، كلما كثر خصومه وشانئوه !!!

ولكنه كان يسير فى طريقه ، ثابت الخطى لا يعنيه سوى أن يكون الله راضيا عنه !!!

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير ، ووصل إلى المعرفة الحقة فأعلن طريقها .

وطريقها ليس حسا يخطىء ، وليس عقلا يضل ، وإنما هو : بصيرة وضاءة وروح صافية .

— ٦ —

واستمرت الخصومة بين :

النصيين ، ويمثلهم الإمام أحمد .

والبصيريين ، ويمثلهم الإمام المحاسبي .

والعقليين ، ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى ، لم تخر صريعة ، بل بقيت قوية ، واستمرت فى كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا .

تسلسلت فكرة المحاسبي ، وتمثلت خير تمثل فى الإمام الغزالى ، ثم فى بقية الصوفية من بعده ، حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها فى أسلوب جديد ، وتعبير صادق ، المرحوم : « الشيخ عبد الواحد يحيى » الذى توفى منذ بضع سنوات .

وتسلسلت فكرة الإمام أحمد ، فتمثلت فى الإمام : « ابن تيميه » الذى وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول ، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلا قويا .

وتسلسلت فكرة المعتزلة ، راكدة حينا ، وقوية حينا آخر ، حتى كان جمال الدين الأفغانى ، فدفعها دفعا قويا إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل فى نشرها ، ملطفة خفيفة تكاد تخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية .

وحمل اللواء من بعده المرحوم : « الشيخ المراغى » والمرحوم : « الشيخ مصطفى عبد الرازق .

وفكرة «الإمام محمد عبده» تتمثل فيهما حقيقة ، لا فى الشيخ رشيد رضا كما يظن ، كثير من الناس .

— ٧ —

لاتزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها ستستمر ؛ ذلك أنها تمثل نزعات فطرية فى بنى الإنسان :

فبعضهم : واقعى ، يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير إلى أبعد منه .

وبعضهم : يحتفظ بشخصيته ، قوية جارفة لاتلين ، فهو عقلى أو اعتزالى .

وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكى النزعة ، فهو بصيرى أو صوفى .

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذة الفطر ستستمر فى بنى البشر ما دام ، على وجه الأرض ، أفراد من النوع الإنسانى ، ومن هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين ، على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات .

وبالله التوفيق .



حققه وعلق عليه

الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله ، الذى يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد المصطفى ، صاحب النبــوة والرسالة ، وعلى آله ، وأصحـابه ، الهادين من الضلالة .

أما بعد : فقد سألتنى (١) أيها الأخ فى الدين ، أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها .

كتب أحد المعاصرين للغزالى الذين اتصلوا به وصاحبوه وهو عبد الغافر ابن اسماعيل الفارسى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ مؤرخا للإمام الغزالى فقال : قال أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل الخطيب الفارس خطيب نيسابور : محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالى ، حجة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة الدين ، لم تر العيون مثله لسانا وبيانا ، ومنطقا وخاطرا وذكاء وطبعا ، أخذ طرفاً فى صباه بطوس من الفقه على الإمام أحمد الراذكانى ، ثم قـــدم نيسابور مختلفا إلى درس إمام الحرمين فى طائفة من الشبان من طوس ، وجد ، واجتهد حتى تخرج فى مدة قريبة ، وبز الأقران وحمل القرآن ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه فى أيام إمام الحرمين ، وكان الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ، ويرشدهم ، ويجتهد فى نفسه . وبلغ الأمر به إلى أن أخذ فى التصنيف . وكان الإمام مع علو درجته وسمو عبارته وسرعة جريه فى النطق والكلام ، لا يصغى نظره إلى الغزالى سرا لإبائه عليه فى سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف وإن كان متخرجاً به منتسباً إليه كما لا يخفى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهراً خلاف ما يضمره ، ثم بقى كذلك إلى انقضاء أيام الإمام .

==

. . . .

= فخرج من نيسابور وصار إلى المعسكر واحتل من نظام الملك محل القبول ، وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته ، وظهور اسمه ، وحسن مناظرته ، وجرى عبارته . وكانت تلك الحضرة محط رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوقعت للغزالى اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقاة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه فى الآفاق وارتفق بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت به الحال إلى أن رسم المصير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة الميمونة النظامية بها فصار إليها ؛ وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، وما لقى مثل نفسه ، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق .

ثم نظر فى علم الأصول وكان قد أحكمه فصنف فيه تصانيف ، وجدد المذهب فى الفقه فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضا تصانيف . وعلت حشمته ودرجته فى بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة فانقلب الأمر من وجه آخر ، وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنفة فيها وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ثم دخل الشام وأقام فى تلك الديار قريبا من عشر سنين يطوف ويزور المشاهد المعظمة وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق اليها ، مثل إحياء علوم الدين . والكتب المختصرة منه ، مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التى من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم .

وأخذ فى مجاهدة النفس ، وتدبير الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، وتهذيب المعاش ، فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة ، إلى سكون النفس . وكرم الأخلاق والفراغ عن الرسوم والترتيبات ، وتزيا بزى الصالحين وقصر الأمل ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد بكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشىء من أنوار المشاهدة حتى مرن على ذلك ولان . =

. . . .

= ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشتغلا بالتفكر ، ملازماً الوقت ، مقصوداً تقياً وذخراً للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة ، وظهرت التصانيف وفشت الكتب ولم تبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا اعتراض لأحد على ما أمره . حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجل فخر الملك جمال الشهداء تغمده الله برحمته ، وتزينت خراسان بحشمته ودولته . وقد سمع وتحقق بمكان الغزالى ودرجته وكمال فضلة وحالته وصفاء عقيدته ومعاشرته . فتبرك به وحضره وسمع كلامه ، فاستدعى منه أن لا يبقى أنفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح وشدد فى الإقتراح إلى أن أجاب إلى الخروج وحمل إلى نيسابور وكان الليث غائباً عن عرينه ، والأمر خافياً فى مستور قضاء الله ومكنونه ، فأشير عليه بالتدريس فى المدرسة الميمونة النظامية عمرها الله فلم يجد بداً من الإذعان لمولاه ، ونوى بإظهار ما اشتغل به هداية الشداة ، وإفادة القاصدين ، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه وتحرر عن رقه من طلب الجاه ومماراة الأقران ومكابرة المعاندين ؛ وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه ، والطعن فيما يذريه ويأتيه ، والسعاية به والتشنيع عليه ، فما تأثر به ولا اشتغل بجواب الطاعنين ولا أظهر استيحاشاً بغميزة المخلطين . ولقد زدته مراراً وما كنت أحدث نفسى ماعهدته فى سالف الزمان عليه من الزعارة وإيحاش الناس والنظر إليهم بعين الازدراء ، والاستخفاف بهم كبراً وخيلاء ، واغتراراً بما رزق من البسطة فى النطق والخاطر والعبارة ، وطلب الجاه والعلو فى المنزلة إنه صار على الضد وتصفى عن تلك الكدورات . وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف متيمن بماصار إليه . فتحققت بعد التروى والتنقير أن الأمر على خلاف المظنون وأن الرجل أفاق بعد الجنون ، وحكى لنا فى ليال كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله وغلبة الحال عليه بعد تبحره فى العلوم واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذى خصصه الله به فى تحصيل أنواع العلوم ، وتمكنه من البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال =

. . . .

= بالعلوم الغريبة عن المعاملة وتفكر فى العاقبة وما يجدى وما ينفع له الآخرة ، فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والامعان فى النوافل واستدامه الأذكار والجد والاجتهاد طلبا للنجاة ، إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكلف تلك المشاق وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده . ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض فى الفنون وعاود الجد والاجتهاد فى كتب العلوم الدقيقة واقتنى تأويلها حتى انفتح له أبوابها ، وبقى مدة فى الوقائع وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل ، ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شىء وحمله على الإعراض عما سواه حتى سهل ذلك وهكذا هكذا إلى أن ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق ، وصار ما كنا نظن به تمرسا وتخلقا ، طبقاً وتحققاً ، وإن ذلك أثر السعادة ، المقدرة له من الله .

ثم سألنا عن كيفية رغبته فى الخروج من بيته . والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر نيسابور فقال معتذراً عنه : ما كنت أجوز فى دينى إلى أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة . وقد حق على أن أبوح بالحق وأنطق به وأدعو إليه ، وكان صادقا فى ذلك

ثم ترك ذلك قبل أن يترك وعاد إلى بيته ، واتخذ فى جواره مدرسه لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة ، إلى أن أصابه عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره ، فنقله إلى كريم جواره بعد مقاساة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم ، والسعى به إلى الملوك ، وكفاه الله وحفظه وصانه من أن تنوشه أيدى المنكيات ، أو ينتهك ستر دينه بشىء من الزلات . وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين البخارى ومسلم اللذين هما حجة الإسلام ، ولو عاش لسبق الكل فى ذلك الفن بيسير من الأيام =

. . . .

= يستفرغه فى تحصيله . ولا شك أنه سمع الأحاديث فى الأيام الماضية واشتغل بآخر عمره بسماعها ولم تتفق له الرواية ، ولا ضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة فى الأصول والفروع ، وسائر الأنواع تخلد ذكره ، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها أنه لم يخلف مثله بعده . مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ودفن بظاهر قصبة طابران والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة فى آخرته . كما خصه الله بفنون العلم فى دنياه عنه . ولم يعقب إلا البنات . وكان له من الأسباب إرثاً وكسباً ، ما يقوم بكفايته ، ونفقة أهله وأولاده ، فما كان يباسط أحداً فى الأمور الدنيوية ، وقد عرضت عليه أموال فما قبلها وأعرض عنها واكتفى بالقدر الذى يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومنال من غيره .

ومما كان يعترض به عليه وقوع خلل من جهة النحو يقع فى أثناء كلامه . وروجع فيه فأنصف من نفسه ، واعترف بأنه ما مارس ذلك الفن واكتفى بما يحتاج إليه فى كلامه ، مع أنه كان يؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعبارات التى تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه فما كان قصده إلا المعانى وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها .

ومما نقم عليه ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية فى كتاب كيمياء السعادة والعلوم ، وشرح بعض الصور والمسائل بحيث لا يوافق مراسم الشرع ، وظاهر ما عليه قواعد الإسلام . وكان الأولى به والحق أحق ما يقال ، ترك ذلك التصنيف والإعراض عن الشرح به . فإن العوام ربما لا يحكمون أصول القواعد بالبراهين والحجج ، فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تخيلوا منه ما هو المضر بعقائدهم ، وينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل . على أن المصنف اللبيب ، إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره مما رمز إليه إشارة الشرع . وإن لم يبح به ، ويوجد أمثاله فى كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرح بها متفرقة ، وليس لفظ =

. . . .

ـــــمنها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم فإنه يشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة ، فلا يجب إذا حمله على إلا على موافق ، ولا ينبغى أن يتعلق به فى الرد متعلق ، إذا أمكنه أن يبين له وجهاً فى الصحة يوافق الأصول ، على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره ويقوم به وكان الأولى أن يترك الإفصاح بذلك كما تقدم ذكره ، وليس كل ما يتفرد ويتمشى لأحد تقديره ينبغى أن يظهره بل أكثر الأشياء فيما يدرى يطوى ولا يحكى، فعلى ذلك درج الأولون من السلف الصالحين ، ابقاء على مراسم الشرع وصيانة الدين عن طعن الطاعنين وغيرة المارقين الجاحدين والله الموفق للصواب .

وقد ثبت أنه سمع سنن أبى داود السجستانى عن الحاكم أبى الفتح الحاكمى الطوسى وما عثرت على سماعه ، وسمع من الأحاديث المتفرقة آلافاً من الفقهاء فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب مولد النبى صلى الله عليه وسلم من تأليف أبى بكر أحمد بن عمرو بن أبى عاصم الشيبانى ، رواية الشيخ أبى بكر أحمد بن الحرث الأصبهانى الإمام ، عن أبى محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان بن المصنف ، وقد سمعه الإمام الغزالى من الشيخ أبى عبد الله محمد بن أحمد الخوارى خوار طابران مع إبنيه الشيخين عبد الجبار وعبد الحميد وجماعة من الفقهاء . ومن ذلك ما قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد أحمد الخوارى ، أخبرنا أبو بكر بن الحارث الأصبهانى ، أخبرنا أبو محمد بن حيان ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبى عاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمى ، حدثنا عبد العزيز بن أبى ثابت . حدثنى الزبير بن موسى . عن أبى الحويرث قال سمعت عبد الملك بن مروان ، سأل قثات بن أشيم الكنانى ، أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى ، وأنا أسن منه ، ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل وتمام الكتاب فى جزء مسموع له (نقله الأستاذ عبد الكريم عثمان عن الطبقات الكبرى للسبكى ، فى كتابه النفيس « سيرة الغزالى ») .

وأحكى لك ما قسيته فى استخلاص الحق ، من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ، إلى يَفَاع (١) الاستبصار .

وما استفدته : أولا من علم الكلام .

وما اجْتَوَيْتُهُ (٢) — ثانياً — من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام .

وما ازدريته — ثالثاً — من طرق التفلسف .

وما ارتضيته آخراً من طريقه التصوف .

وما انجلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق .

وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة .

وما ردنى إلى معاودتى ، « بنَيْسَابور » بعد طول المدة .

فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ؛ وقلت مستعيناً بالله ، ومتوكلا عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه :

إعلموا ـ أحسن الله تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم ـ أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون وكل فريق يزعم أنه الناجى . و « كل حزب بما لديهم فرحون » . وهو الذى وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ، وهو الصادق الصدوق ،

---

(١) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) تقول : اجتويت البلد إذا كرهت المقام به وإن كنت فى نعمة .

حيث قال : « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة (١) » ؛ فقد كان ما وعد أن يكون .

ولم أزل في عنفوان شبابي — منذ راهقت البلوغ . اقبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين — أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكله ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ؛ لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته .

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

---

(١) روى هذا الحديث عن اختلاف في متنه ، في عدة كتب ، بعدة أسانيد .

ولكنه لم يرو في « صحيح البخاري » ولا في « صحيح مسلم » .

وقد قال « ابن حزم » عنه : إنه لا يصح أصلا من جهة الإسناد .

وقال « ابن الوزير » في « العواصم والقواصم » : إياك أن تغتر بزيادة : كلها في النار إلا واحدة . فإنها زيادة فاسدة ؛ ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة .

على أنه قد روى هذا الحديث بالخاتمة الآتية : « اثنتان وسبعون في الجنة ، وواحدة في النار » . وقال المقدسي في « أحسن التقاسيم » إن الحديث على هذا الوضع أصح اسنادا .

ومع ذلك فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال « الشهرستاني » يعدون الفرق التي في النار ، ويتكلفون الوصول بها إلى « اثنتين وسبعين فرقة » ، مع أن تشعب الفرق واختلاف المذاهب والآراء لا ينتهي حتى تقوم الساعة .

انظر مقدمة كتاب « التبصير في الدين » التي كتبها « الشيخ زاهد الكوثري » رحمه الله تعالى .

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الأطلاع على غاية كلامه ومجادلته .

ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقاً معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته ، فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى ، وديدنى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى : غريزة ، وفطرة من الله ، وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت علىّ العقائد الموروثة ، على قرب عهد سنّ الصبا ؛ إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ،وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال :

« كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه »

فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تميز الحق منها عن الباطل اختلافات .

فقلت فى نفسى : أولا ، إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى أن : العلم اليقينى : هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارناً

لليقين ، مقارنة لو تـَحدَّى بإظهار بطلانه — مثلا — من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكا وإنكاراً ، فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك — بسببه — فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه !

فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينى .

مدخل السفسطة

وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومى، فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة، إلا فى الحسيات، والضروريات.

فقلت. الآن بعد حصول اليأس لا مطمع فى اقتباس المشكلات إلا من الجليّات، وهى الحسيات، والضروريات: فلا بد من إحكامها أولا ؛ لأتيقن أن ثقتى بالمحسوسات، وأمانى من الغلط فى الضروريات، من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات، ومن جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه: ولا غائلة له.

فأقبلت بجد بليغ، أتأمل فى المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها ؟ فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضاً، وأخذ يتسع هذا الشك فيها، ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات ؟ وأقواها حاسة البصر، وهى تنظر إلى الظل، فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفى الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة — بعد ساعة — تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدريج ذرة، ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف

وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً فى مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار.

هذا، وأمثاله، من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس، بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل، ويُخَوِّنه، تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته.

فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً، فلعله لا ثقة الا بالعقليات، التى هى من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد، والشىء الواحد لا يكون

حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالا .

فقالت المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بى ، فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر ، إذا تجلى ،كذّب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذّب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالته !!

فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا ، وأيدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد فى النوم أموراً ، وتتخيل أحوالا ، وتعتقد لها ثباتاً ، واستقراراً ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل ، وطائل ؟

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم ؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات .

ولعل تلك الحالة هى الموت ؛ إذ قال رسول الله ﷺ :

« الناس نيام ، إذا ماتوا انتبهوا » .

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة . فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك : « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيد » .

فلما خطرت لى هذه الخواطر ، وانقدحت فى النفس ، حاولت لذلك

علاجاً فلم يتيسر ؛ إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل .
فأعضلَ هذا الداءُ ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على السَّفْسَطَةِ بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ،

حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقاً بها على أمن ويقين .

ولم يكن ذلك بِنَظْمِ دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ؛ ولما سئل رسول الله عليه السلام عن « الشرح » ومعناه قوله فى تعالى :
« فَمَنْ يُرِدِ الله أنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ » . فقال :
« هو نور ، يقذفه الله تعالى فى القلب » .
فقيل : « وما علامته ؟ » .
فقال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » ، وهو الذى قال عليه السلام فيه :
« إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » .
فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف .

وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين ، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

والمقصود من هذه الحكايات أن يُعْمَلَ فى كمال الجد فى الطلب ، حتى يُنْتَهَى إلى طلب ما لا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة ؛ فإنها حاضرة . والحاضر إذا طلب نفر ، واختفى . ومن طَلَبَ ما لا يطلب ، فلا يتهم بالتقصير فى طلب ما يطلب .

أصناف الطالبين

ولما شفانى الله تعالى من هذا المرض بفضله . وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق :

١ — المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأى ، والنظر .

٢ — الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ — الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق ، والبرهان .

٤ — والصوفيــــة : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة ، والمكاشفة .

فقلت فى نفسى : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى فى درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع فى الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته : إذ مِنْ شرط المقَلِّد أن لا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شَعْبٌ (١) لا يُرأب (٢) وشَعَثٌ (٣) لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق :

مبتدئاً بعلم الكلام .

ومثنيا بطريق الفلسفة .

ومثلثاً بتعليم الباطنية .

ومربعاً بطريق الصوفية .

---

(١) الشعب : من الأضداد ، وهو هنا بمعنى الشق .

(٢) برأب : يصلح . (٣) شعث : متفرق .

١ — علم الكلام

مقصوده وحاصله

ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام ، فحصّلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم .

وصنّفت فيه ما أردت أن أصنّف .

فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودى .

وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة(١) .

---

(١) نرى أن الإمام الغزالى — مع هدمه فى النهاية لعلم الكلام — كان مجاملا للمتكلمين ، وقد وضحنا رأينا فى هذا العلم ، فى المقدمة ، ويسرنا أن نذكر هنا رأى السلف فى شىء من الاستفاضة .

قال ابن عبد البر ، المتوفى سنه ٤٦٣ فى كتاب « جامع بيان العلم وفضله » : نهى السلف — رحمهم الله — عن الجدال فى الله جل ثناؤه فى صفاته ، وأسمائه . وأما الفقه فأجمعوا على الجدال فيه ، والتناظر ؛ لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول : للحاجة إلى ذلك ، وليس الاعتقادات كذلك ؛ لأن الله ـ جل وعز ـ لا يوصف عند الجماعة ـ أهل السنة ـ إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، أو أجمعت الأمة عليه . وليس كمثله شىء ، فيدرك بقياس ، أو إنعام نظر . وقد نهينا عن التفكير فى الله ، وأمرنا بالتفكير فى خلقه الدال عليه . وعن مصعب ابن عبدالله الزبيرى ، قال : « كان مالك بن أنس يقول : الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه ، نحو الكلام فى رأى جهم ، والقدر ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » . وقال أيضا فى الكتاب نفسه « وقال : احمد ابن حنبل : لا يفلح صاحب كلام أبدا ، ولا نكاد نرى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل . وقال مالك : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم ، لدين جديد ؟ » .

=

فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحق ، على

= « قال أبو عمر . تناظر القوم وتجادلوا فى الفقه ، ونهوا عن الجدال فى الاعتقاد ، لأنه يؤدى إلى الانسلاخ من الدين ، ألا ترى إلى مناظرة بشر ، فى قوله عز وجل : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » حين قال : هو بذاته فى كل مكان . فقال له خصمه : فهو فى قلنسوتك ، وفى حشك ، وفى جوف حمار . تعالى الله عما يقول . حكى ذلك وكيع رحمه الله . وأنا والله أكره أن أحكى كلامهم . . . فمن هذا وشبهه نهى العلماء » . من كتاب « التمهيد للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق » . وقد جاء فيه أيضاً عن شيخ الإسلام الهروى المتوفى سنة ٤٨١ ه .

« وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : خرج رسول الله ﷺ ، على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون فى القدر . فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : « ياقوم ! بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ! وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن ، فصدّق بعضه بعضاً . ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به » . وأخرج عن أبى هريرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب ، حتى أحمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر . عزمت عليكم ألا تنازعوا . وأخرج عن أبى الدرداء ، وأبى أمامة ، وأنس بن مالك ، وواثلة بن الأسقع ، قالوا : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتنازع فى شىء من الدين ، فغضب غضباً شديداً ، لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا . قال : يا أمة محمد ! لاتهيجوا على أنفسكم ، ثم قال : أبهذا أمرتكم ؟ ! أو ليس عن هذا نهيتكم ؟ ! إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ثم قال : ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء ، فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان ، ذروا المراء ، فإن المراء لا تؤمن فتنته ، ذروا المراء ، فإن المراء يورث الشك ، ويحبط العمل ، ذروا المراء ، فإن المؤمن لا يمارى ، ذروا المراء ؛ فكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً ، ذروا المراء فإن المارى لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا =

مافيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار .

ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة ، على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله[1] .

= المراء ، فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة ، فى وسطها ، وربضها ، وأعلاها لمن ترك المراء ، وهو صادق ، : ذروا المراء ، فإنه أول ما نهانى الله عنه بعد عبادة الأوثان ، وشرب الخمر ، ذروا المراء ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد . ولكن رضى بالتحريش ، وهو المراء فى الدين ، ذروا المراء ، فإن بنى إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنين وسبعين فرقة وإن أمتى ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم على الضلالة ، إلا السواد الأعظم ، قالوا يارسول الله ومن السواد الأعظم ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابى ، ثم قال : إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً ، فطوبى للغرباء ، قالوا : يارسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ولا يمارون فى دين الله » .

تمهيد ص ٢٨٢ — ٢٨٣

(١) تحدث الإمام الغزالى عن علم الكلام غير مرة فى كثير من كتبه ، وتحدث فى « الإحياء » عن الآراء فى كونه حلالا أم حراما ، ثم قال :

وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف .

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله : سمعت الشافعى رضى الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد . وكان من متكلمى المعتزلة يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشىء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه .

=

فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضالَ عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغييرَ فى وجه ما أُحدِثَ من البدعة .

= وقال أيضاً : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر فى الكلام .

وحكى الكرابيس ، أن الشافعى رضى الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب . وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله .

ولما مرض الشافعى رضى الله عنه دخل عليه حفص الفـــرد فقا له من أنا : فقال حفص الفرد : « لاحفظك الله ، ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه » ؛ وقال أيضا : « لوعلم الناس ما فى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد » ؛ وقال أيضاً « إذا سمعت الرجل يقول : « الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له » قال الزعفرانى ، قال الشافعى حكمى فى أصحاب الكلام . أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر . ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة . وأخذ الكلام .

وقال احمد بن حنبل : « لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل » وبالغ فى ذمه حتى هجر الحادث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا فى الرد على المبتدعة ، وقال لهويحك ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ! ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة ، والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث . وقال احمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة » .

وقال مالك رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ . يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت .

وقال مالك رحمه الله أيضاً : « لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء » .

فقال بعض أصحابه فى تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا .

وقال أبو يوسف : « من طلب العلم بالكلام تزندق » . =

ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم واضطرهم إلى تسليمها : إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار .

وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلّماتهم . وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلّم سوى الضروريات شيئاً أصلا .

فلم يكن الكلام فى حقى كافياً ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه[1] شافياً .

= وقال الحسن : « لا تجادلوا أهل الأهواء ، ولا تجالسوهم ، ولا تسمعوا منهم » . وقد اتفق أهلا الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : « ماسكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق ، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ، إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر : ولذلك : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » ؟ أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء .

واحتجوا أيضاً : بأن ذلك لو كان من الدين ، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابة ؛ فقد علمهم الاستنجاء ، وندبهم إلى علم الفرائض ، وأثنى عليهم ، ونهاهم عن الكلام فى القدر وقال : « أمسكوا عن القدر » وعلى هذا استمر الصحابة رضى الله عنهم ـ فالزيادة على الأستاذ طغيان ، وظلم ، وهم الأستاذون والقدوة ـ ونحن الاتباع ، والتلامذة .

(١) وتحدث الإمام الغزالى فى الإحياء أيضاً عن منفعة علم الكلام وفائدته معبراً بهذا النص عن رأيه الخاص فقال :

وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته : كشف الحقائق ، ومعرفتها على ماهى عليه ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث ؛ أو حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا . فاسمع هذا ممن خبر الكلام ، ثم قلاه =

نعم ، لمّا نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة ، تشوّق المتكلمون إلى محاولة الذبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، وخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها . لكن لمّا لم ، يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه مايمحو بالكلية ظلمات الحيرة ، فى اختلافات الخلق .

ولا أُبْعِدُ أن يكون قد حصل ذلك لغيرى . بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة . ولكنْ حصولاً مشوباً بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات .

والغرض الآن حكاية حالى لا الإنكار على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به المريض ويَسْتَضِرّ به آخر .

= بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود .

٢ — الفلسفة

أحاصيلها - ما يذم منها ، وما لا يذم - وما يكفر قائلة ، وما لا يكفر - وما يبدع فيه ، وما لا يبدع - وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ، ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم فى درج ذلك - وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق - وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم

ثم إنى ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة . وعلمت يقينا أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمَهم فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته : فيطّلع على مالم يطّلع عليه صاحب العلم ، من غور ، وغائلة . وإذ ذاك يمكن أن يكون مايدّعيه من فساده حقاً .

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك .

ولم يكن فى كتب المتكلمين من كلامهم ، حيث اشتغلوا بالرد عليهم ، إلا كلماتٌ معقدة مبدّدة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا يُظَنّ الاغترار بها بعاقل عامى ، فضلا عمن يدعى دقائق العلوم . فعلمت : أن ردّ المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، رمى فى عماية .

فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم منَ الكتب ، بمجرد المطالعة ، من غير استعانة بأستاذ . وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى ، من التصنيف ، والتدريس فى العلوم الشرعية وأنا مَمْنُوٌّ(1) بالتدريس ، والإفادة لثلاثمائة نفس ، من الطلبة ببغداد .

فأطلعنى الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلَسة ،

---

(1) مبتلى .

على منتهى علومهم ، فى أقلّ من سنتين . ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه ، بعد فهمه ، قريبا من سنة ، أعاوده وأردده ، وأتفقد غوائله ، وأغواره حتى اطلعت على ما فيه من خداع ، وتلبيس ، وتحقيق ، وتخييل ، اطلاعا لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم : فإنى رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصْمَةُ الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم ، فى البعد عن الحق ، والقرب منه .

أصناف الفلاسفة

وشمول وصمة الكفر كافتهم

إعلم : أنهم — على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم — ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

الدهريون .

والطبيعيون .

والإلهيون .

الصنف الأول : الدهريون[1] : وهم طائفة من الأقدمين ، جحدوا

---

(١) بعد أن ذكر سنتلانا كلام اليعقوبي ، والغزالي عن الدهرية قال :

« فإنا لو حاولنا استنباط الأصول التي اعتمدها اليعقوبي والغزالي فيما ذكراه في حق الدهرية وجدنا أرسطو يقول في كتاب السماء والعالم حاكيا عن أنبا ذو قليس :

إن هذا العالم لم يحدثه أحد من الآلهة ولا من البشر بل كان أبداً . اهـ

ثم قال أرسطو في المقدمة الثالثة من كتاب السماء ما نصه :

أما من ذهب إلى قول أنبا ذو قليس وديموقريطس فإنه قال : إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها في بعض بل لاحدوث إلا في الظاهر فانها موجودة على حدتها فتفترق بعد الاجتماع . اهـ

ثم قال في كتاب الفساد والتكوين في المقالة الأولى : وعندهم أن الأركان إذا اجتمعت فقد تحدث الأجسام وإذا افترقت فسدت الأجسام .

وعندهم أيضاً أن الوجود لا يصير أبداً إلى العدم . اهـ

وقال ديوجانس في تاريخ الحكماء : ورأيهم أن العدم لا يحدث منه شيء وأن الوجود لا يصير إلا العدم . اهـ

فإذا ماقابلنا هذه النصوص بما في تاريخ اليعقوبي وجدناها مطابقة فصلا =

الصانع المدبر[1] ، العالم القادر ، وزعموا : أن العالم لم يزل موجوداً كذلك

= فصلا لما ذكره من مذهب الدهريين .

فتقرر حينئذ أن الدهرية عند العرب هم شيعة ديموقريطس وأنا ذو قليس ، وأن الطبيعيين هم بقية الأقدمين من الفلاسفة .

ومذهب ديموقريطس هو الغاية القصوى فى فلسفة اليونان أواخر العصر الأول .

اقبس منه الأشاعرة قولهم بالجزء الذى لا يتجزأ .

منه أخذ النظام من متكلمى المعتزلة قوله بالكمون . . .

ومنه أخذ جم غفير من الملاحدة والطبيعيين قولهم فى أنكار البارى ووحده الوجود .

فمن طابق قول ديموقريطس بما عليه الطبيعون من الفلاسفة فى عصرنا هذا لما وجد بين القولين تفاوتا اللهم إلا ما نشأ عن تقدم العلوم فى زماننا .

والحق أن من اقتصر على الطبيعات ولم يقل بغير المحسوسات لا يسعه إلا اقتفاء أثرهم والتحلى بشعائرهم . مع أن من تبصر فى عواقب الأمور تحقق أن مثل هذا الرأى لا يفضى فى كل زمان إلا لأنكار الحقائق وهدم دعائم العقل .

« سنتلانا : المذاهب الفلسفية ، مخطوط مكتبة الجامعة » .

(١) إن الحقيقة التى لا جدال فيها هى : أن الأغلبية العظمى من الفلاسفة ، ومن العلماء فى جانب الإيمان .

والإلحاد فى جو الفلاسفة ، وفى جو العلماء شذوذ .

ومما لا شك فيه أن عباقرة الفلسفة : القدماء منهم والمحدثين : مؤلهون .

فسقراط ، وأفلاطون ، وأسطو ، وأفلطين ، وديكارت ، وكانت من المؤلهين .

وإذا كان الإلحاد الفلسفى شذوذاً ، فان ذلك لا ينفى أنه حقيقة موجودة ، وأن له ممثلين باستمرار ؛ وهم — على حد تعبير الإمام الغزالى — « جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ،

بنفسه ، وبلا صانع ، ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، النطفة من الحيوان ،

═ وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً » .

وديموقريطس ، فى العهد اليونانى ، هو الذى حاول بكل جهده أن يقيم من الإلحاد مذهباً ؛ وكانت فكرته هى :

أن المادة قديمة ، وهى مركبة من أجزاء لا تتجزأ ، وهذه الأجزاء ، أو الذرات دائمة التحرك فى الفضاء اللانهائى ؛ ومن اجتماعها تتكون الأجسام ، وبافتراقها تفنى وهكذا استمر الأمر من الأزل ، وسيبقى إلى الأبد بدون غاية ولا هدف ، إنها الآلية البحتة .

وهذه الفكرة وإن كانت قديمة ، فانها فكرة كل من يتخذ الإلحاد مذهباً فى العصور الحديثة ، وإن اختلفت كيفيات التعبير عنها .

إنها فكرة الماديين المحدثين ، كما كانت فكرة الماديين القدماء ولم يغير من جوهرها تحطيم الذرة أو تفتيتها ، اللهم إلا فى كيفية التعبير عنها .

وقد رد القدماء ، فى سهولة وفى قوة ، على هذا المذهب ، وكذلك فعل المحدثون وكانت حجتهم ، من الدقة ومن الإحكام ، بحيث تجعل المتأمل فيها لا يتأتى أن يقول بغيرها .

وقد لخص حجج القدماء الأستاذ . سانتلانا ، فى المخطوط المعنون بعنوان : « المذاهب الإسلامية » . . ونحن نورد تلخيصه الرائع فيما يلى :

« ا » وأما القول بالطبيعة ، وأن لا شىء غيرها : فهو لا يرضى العاقل المتبصر ؛ كأنه يقول :

نعم ، أنا لا أنازع فى كون الطبيعة والحركة : من أصول الموجودات ، وإنما توقفت فى كيفية صدور الفعل منها .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، الذى حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول .

كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ومجرد البخت ، ليت ═

. . . .

= شعرى ، كيف اجتمعت تلك الأجزاء ، وكيف تألفت ، على اختلاف أشكالها وتباين موادها وقواها ؟ ! ! ، وكيف بقيت على تألفها ؟ ! ! وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ ! !

وقد شهدت المعاينة : بأن حركات أجزاء لانهاية لها ولا محرك : لا تفضى إلا إلى غاية الالتباس وعدم القياس !

هذا لعمرى ، كمثل من وضع حروف المعجم فى ظرف ، أو صندوق ، ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم ، طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة ، أو رسالة عميقة فى المنطق ، أو كتاب فى الهندسة دقيق ! !

أليس ذلك من السفه البين ؛ فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كده إلا على حروف ! !

فكيف يتصور حدوث هذا الموجود « العالم » بما هو عليه : من الاتقان والإحكام ، وتضافر الأجزاء ، وعجيب مناسباتها بعضها لبعض : من حركات اتفاقية فى خلاء لا نهاية له ؟ ! !

قال أرسطو فى كتاب « سمع الكيان » :

« إن كل نظام يدل على وجود العقل » .

« ب » وفضلا عن هذا ، فإن مايحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلى عليه ، ولا يقبل القياس ، بخلاف ما شهدت به التجربة فى عالمنا من الثبوت . ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية .

« حـ » هذا ، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شىء سواها ، فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه ؟ ! !

وهى — مع ما فيها : من العجز ، والقصور ، وكثرة الخطأ — من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم .

ولا سبيل ، من المادة ، إلى الأفعال العقلية ؛ لما بينهما من المغايرة الأصلية .

فوجود هذه القوة : يستدعى وجود جوهر يجانسها ويماثلها ، ليكون أصلا لها ومركزاً . =

كذلك كان ، وكذلك يكون أبدا . وهؤلاء هم الزنادقة[١] .

هل يحتمل : أن ما نشاهده : تصور المعقولات ، والكشف عن الكليات وتفريق القضايا ، وتركيب القياسات : ليس هو ، فى نفس الأمر إلا أصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ! !

هل يحتمل : أن ما تضمنته عقولنا : من الابحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة : كالمنطق ، والرياضيات ، والالهيات ، وما فتنت به القلوب : من الشعر الرائق ، والمطرب من الالحان ، وسحر البيان : أصله من تلك الأجزاء ؟ ! !

وكانبعاث النار من اصطكاك الحجر بالحجر ، وذلك فى خصوص النار ؛ إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير .

(د) إن المادة غير قادرة لأن تكون علة نفسها ، فمن باب أحرى وأولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً ، فى درجة الوجود ؛ وإلا كان الأخس أصلا لما هو أرفع ؛ وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

(١) ويقول سنتلانا أيضاً : « من تبصر فى عواقب الأمور تحقق أن مثل هذا الرأى لا يفضى فى كل زمان إلا لأ نكار الحقائق وهدم دعائم العقل . كيف لا ومن قال : إنه ليس فى الوجود إلا المحسوس ولا شىء سواه كيف يمكن له أن يحكم بالوجود ؟

وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسى فى شرح المحصل حيث قال نقلا عن أرسطو وغيره :

الحس أدراك فقط .

والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس .

وليس من شأن الحس التأليف الحكمى ، لأنه إدراك فقط فلا شىء من الأحكام محسوسة أصلا ، فإذن كل ماهو محسوس لا يمكن أن يوصف ، من حيث كونه محسوساً ، بكونه يقينيا أو غير يقينى ، أوحقا أو باطلا ، أوصوابا أو غلطاً ، فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الأحكام اه . وهو واضح لمن تحقق ماهية الحس وأنه مقصور بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه . على أن المدرك والمدرك لازالا يتغيران فكيف يحكم به على غيره ، وكيف تبنى

والصنف الثانى : الطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان ، والنبات .

وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات .

فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الإعتراف بفاطر حكيم ، مطّلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريحَ ، وعجائبَ منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء — لكثرة بحثهم عن الطبيعة — ظهر عندهم ، لاعتدال المزاج ، تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم . ثم إذا انعدم ، فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا . فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة ، والنار ، والحشر ، والنشر والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ؛ فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله ، واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الإلهيون : وهم المتأخرون منهم مثل : « سقراط »[1]

= عليه حكما عقليا ، وكيف نقف على حقيقته إذ كل ذلك موقوف على ما هو غير الحس . فإنى إذا تصورت مثلا أنى قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حد الإدراك الحسى وأدخلت فيه حكما عقلياً ليس له بالحس تعلق .

فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون مثلها حينئذ إلا الشك فى الحقائق كما وقع فى اليونان أثناء القرن الرابع قبل الميلاد .

(١) سقراط : من أشهر فلاسفة الاغريق ، ومؤسس فلسفة الأخلاق وإلى مدارسه الأخلاقية التى شادها تلاميذه من بعده ترجع أكثر الفكر =

وهو أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » أستاذ « أرسطاطاليس » .

= الأخلاقية التى عرفتها فلسفات العصور حتى عصرنا هذا .

عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وجاهد فى سبيل الحق حتى لقى مصرعه على أيدى حاسديه من أنصار الباطل ، فكان مصرعه مأساة دامية لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق فى كل زمان ومكان ، وتوحى إلى أنفسهم بأسمى مثل البطولة والشجاعة والثبات على الحق .

ومنهجه فى البحث مشهور ، والحديث التالى يعطينا صورة منه . وقد جرى بينه وبين « أرسطو ديموس » الذى كان ينكر الإله ، ومنه نستبين أيضاً بعض أفكاره .

قال سقراط . « أفى الناس من يعجبك براعته فى الصنائع ؟ فقال :

نعم ؛ وسمى من الشعراء والمصورين من كان يعده أبرع من غيره .

فقال سقراط : أيهما عندك أرفع شأنا ؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أما من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

فقال : من يصنع الصور الحية اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق ، لا من عمل العقل .

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينه القصد والمنفعة فما قولك فى تلك الأشياء ؟ ما هى التى عندك من فعل العقل وما هى التى عندك من فعل الاتفاق ؟

قال لا شك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل .

قال سقراط : أو لست ترى أن صانع الإنسان فى أول نشأته جعل له آلات الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ : فأعطاه البصر ، والأذنين : ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صادقا . وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشم ؟ وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين المر والحلو والمز ، لو لم يكن لنا لسان نذوق به ؟ إن بصرنا معرض للآفات ، أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك ؟ فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيهما من أضرار الرياح . وما قولك فى آلة السمع ؛ =

و « أرسطاطاليس » هو الذى رتب لهم المنطق . وهذب لهم العلوم ، وحرر لهم مالم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجّاً من علومهم .

وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم .

ثم رد « أرسطاطاليس » على « أفلاطون »[١] و « سقراط » ومن كان قبله من الإلهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم ، وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين « كابن سينا » و « الفارابى » وأمثالهما .

على أنه لم يقم بنقل علم « أرسطاطاليس »[٢] أحد من متفلسفة

= وهى تقبل جميع الأصوات ولا تمتلىء أبداً ؟ أما رأيت الحيوانات ، كيف رتبت أسنانها المقدمة ، وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقاً . . .

فإذا تأملت فى ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك . هل هى من فعل الاتفاق أم من فعل العقل ؟

قال أرسطو ديموس : نعم إذا تفكرنا فى ذلك لا نشك فى أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته (من مخطوط ستتلانا)

(١) فيلسوف يونانى ولد سنة ٤٢٩ ، وتوفى سنة ٣٤٧ ق م ، ويطلق عليه « افلاطون الإلهى » ذلك أن الروحانية تحتل من فلسفته المركز الرئيسى . ونظريته فى « المثل » ، وعلى رأسها « مثال الخير » مشهورة ، وقد ترجم من كتبه إلى العربية حديثاً بعض المحاورات ، وكتاب « الجمهورية » .

(٢) أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) ، هو أعظم فلاسفة اليونان الأقدمين ، ويعده بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وجدت حتى الآن ، وهو مقدونى الأصل رحل إلى أثينا وتتلمذ على « أفلاطون » ، ولازمة ؛ ويسمى أتباعه « بالمشائين » ، ويلقب هو بـ « المعلم الأول » ، لأنه أول من رتب علم المنطق ونظمه ، وكونه علماً له حدوده وأهدافه ، وقد طلب إليه « الملك فيليبس المقدونى » تعليم ابنه =

الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يفهم : وما لا يفهم : كيف يرد أو يقبل ؟ . ومجموع ماصح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس، بحسب نقل هذين الرجلين . ينحصر فى ثلاثة أقسام :

١ — قسم يجب التكفير به .

٢ — وقسم يجب التبديع به .

٣ — وقسم لا يجب إنكاره أصلا ، فلنفصله .

أقسام علومهم :

إعلم : أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذى نطلبه ستة أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

١ — أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شىء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هى أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ، ومعرفتها .

وقد تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها : فيحسُن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة ، فيحسَب أن جميع علومهم فى الوضوح ، وفى وثاقة البرهان ، كهذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم ، وتعطيلهم ، وتهاونهم بالشرع ، ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان الدين حقاً ، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم فى هذا العلم ! فإذا عَرَفَ بالتسامع كفرَهم وجحدَهم ، فيستدل على أن الحق هو الجحد

= «الاسكندر» فأخذ يعلمه ثلاث سنوات ، وقد ترجم إلى العربية حديثا من كتبه «كتاب الأخلاق» و «الكون والفساد» و «السياسة» ترجمها الأستاذ الكبير «أحمد لطفى السيد» ، وترجم له الأستاذ «الاهوانى» كتاب «النفس» .

والإنكار للدين . وكم رأيت من يضل عن الحـــق بهذا القدر ولا مستند له سواه !

وإذا قيل له : الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً فى كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه ، والكلام ، حاذقاً فى الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق ، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم فى غيرها ، فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى ، وفى الإلهيات تخمينى ، لا يَعرف ذلك إلا من جربه ، وخاض فيه . فهذا إذا قُرِّرَ على هذا الذى انخدع بالتقليد لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، وشهوة البطالة ، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض فى تلك العلوم ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم ، يسرى إليه شرهم وشؤمهم ، فقلّ من يخوض فيه ، إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ظن أن الدين ينبغى أن يُنْصَرَ بإنكار كل علم منسوب إليهم : فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم فى الكسوف ، والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عَرَفَ ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك فى برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً ، وللإسلام بغضاً .

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنْصَر بإنكار هذه العلوم ، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى ، والإثبات ، ولا فى هذه

العلوم تعرض للأمور الدينية . وقوله عليه السلام :

إنّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ تعَالى لا يَنْخَسِفَان لموتِ أحدٍ ، ولا لِحياتهِ ؛ فإذا رَأيتم ذلك فافْزَعُوا إلى ذِكرِ الله تعالى ، وإلى الصلاة » .

ليس فى هذا إنكار علم الحساب ، المعرِّفِ بسير الشمس ، والقمر ، واجتماعهما ، أو مقابلتهما ، على وجه مخصوص .

أما قوله عليه السلام « لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة فى الصِّحَاحِ أصلا .

فهذا حكم الرياضيات ، وآفتها .

٢ — وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين ، نفياً ، وإثباتاً ، بل هو النظر فى طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها .

وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه .

وأن العلم إما تصور ، وسبيل معرفته ، الحد ، وإما تصديق ، وسبيل معرفته ، البرهان .

وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر فى الأدلة . وإنما يفارقونهم بالعبارات ، والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات ، والتَّشْعيبات .

ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل (ا) (ب) ، لزم أن بعض (ب) (ا) أى : إذا ثبت أن كل إنسان حيوان ، لزم أن بعض الحيوان إنسان ، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية ، تنعكس موجبة جزئية . وأى تعلق لهذا بمهمات الدين ، حتى يجحد وينكر ؟ فإذا أنكر ، لم يحصل

من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر ، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على هذا الإنكار .

نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يُعلَمُ أنها تورث اليقين ، لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ، ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل .

وربما ينظُرُ في المنطق أيضاً ، من يستحسنه ، ويراه واضحا : فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية .

فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه .

٣ — وأما علم الطبيعيات : فهو بحث عن عالم السموات ، وكواكبها ، وما تحتها من الأجسام المفردة كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ومن الأجسام المركبة : كالحيوان ، والنبات ، والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ، واستحالتها ، وامتزاجها ، وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان ، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه . وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب « تهافت الفلاسفة » وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل ، يتبين أنها مندرجة تحتها .

وأصل جملتها أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والطبائع مسخرات بأمره ، لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤ — وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء

بالبراهين على ماشرطوه فى المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها .

ولقد قرب مذهب « أرسطاطاليس » فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابى[١] ، وابن سينا[٢] .

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين ، أصلا يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر .

ولإبطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب « التهافت » .

أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك فى قولهم :

---

(١) « الفارابى » : (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ) ولد فى « فاراب » . وهو إقليم فارسى فى تخوم بلاد « الترك » ، رحل إلى « بغداد » ، ثم استقر به المقام فى كنف « سيف الدولة » ، يعيش عيشة الزهد . موجها كل همه إلى الدراسة والتأمل . يقول « ابن خلكان » : وكان مدة مقامه بـ « دمشق » لا يكون - غالباً - إلا عند مجتمع ماء ، أو مشتبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه .

وكان « الفارابى » يحسن « الموسيقى » تلحينا وتوقيعا ، حتى ليحكى « ابن خلكان » : أن « الآلة الموسيقية » . « القانون » إنما هى من وضعه ؛ وقد أطلق عليه المسلمون : « المعلم الثانى » . كما أطلق على « أرسطو » : « المعلم الأول »

وتقدير المؤرخين له متفاوت : فمنهم من يقدمه على « ابن سينا » ، ومنهم يقدم « ابن سينا » عليه .

(٢) « ابن سينا » : (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) كان فيلسوفاً عظيما من فلاسفة الإسلام ، كما كان له فى الطب قدم راسخة وفهم دقيق ، وقد ألف فيه كتاب « القانون » الذى كان يدرس فى معاهد « أوربا » عدة قرون . أما كتبه الفلسفية فكثيرة ومتداولة ، ومن أشهرها كتاب « الإشارات » ، وكتاب « الشفاء » وكتاب « النجاة » .

١ — أن الأجساد لا تحشر[١] ، وإنما المثاب ، والمعاقب هى الأرواح

---

(١) لعل من الإنصاف ، الذى يدعوا إليه دائماً الإمام الغزالى ، أن نذكر رأى ابن رشد فى المسائل الثلاث التى كفر بها الإمام الغزالى الفلاسفة . نذكر رأى ابن رشد ، مختصراً ، عن كتابى « فصل المقال » و « الكشف عن مناهج الأدلة » يقول ابن رشد : والمعاد مما اتفقت على وجوده الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء ، وإنما اختلفت الشرائع فى صفة وجوده ، ولم تختلف فى الحقيقة فى وجوده ، وإنما اختلفت فى الشاهدات التى مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة : وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً أعنى للنفوس ؛ ومنها من جعله للأجسام والنفوس معاً . والاتفاق فى هذه المسألة مبنى على اتفاق الوحى فى ذلك ، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع فى ذلك ، أعنى : أنه قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين : أخراوية ودنياوية وانبنى ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل (ثم أخذ ابن رشد فى بيان هذه الأصول، من العقل، والنقل) ثم قال : فالشرائع كلها كما قلنا متفقة على أن للنفس من بعد الموت أحوالا ، من السعادة ، أو الشقاء . فى تمثيل هذه الأحوال ، وتفهيم وجودها للناس . ويشبه أن يكون التمثيل الذى فى شريعتنا هذه أتم إفهاماً لأكثر الناس ، وأكثر تحريكا لنفوسهم إلى ما هنالك ، والأكثرون هم المقصود الأول بالشرائع .

وأما التمثيل الروحانى فيشبه أن يكون أقل تحريكا لنفوس الجمهور إلى ما هنالك والجمهور أقل رغبة فيه . وخوفا له منهم فى التمثيل الجسمانى . ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسمانى أشد تحريكا إلى ما هنالك من الروحانى ، والروحانى أشد قبولا عند المتكلمين الجادلين من الناس وهم الأقل .

ولهذا المعنى ، نجد أهل الإسلام — فى فهم التمثيل الذى جاء فى ملتنا فى أحوال المعاد — ثلاث فرق ؛ فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذى ههنا من النعيم واللذة ، أعنى أنهم رأوا أنه واحد بالجنس ، وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانقطاع ، أعنى أن ذلك دائم ، وهذا منقطع . =

المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

= وطائفة رأت أن الوجود متباين ، وهذه انقسمت قسمين : طائفة رأت أن الوجود الممثل بهذه المحسوسات هو روحانى ، وأنه إنما مثل به إرادة البيان ، ولهؤلاء حجج كثيرة من الشريعة مشهورة ، فلا معنى لتعديدها .

وطائفة رأت أنه جسمانى لكن اعتقدت أن تلك الجسمانية — الموجودة هنا لك — مخالفة لهذه الجسمانية ، لكون هذه بالية ، وتلك باقية ، ولهذه أيضاً حجج من الشرع . ويشبه أن ابن عباس يكون ممن يرى هذا الرأى ؛ لأنه روى عنه أنه قال : ليس فى الدنيا من الآخرة إلا أسماء . ويشبه أن يكون هذا الرأى هو أليق بالخواص ، وذلك أن إمكان هذا الرأى ينبنى على أمور ليس فيها منازعة عند الجميع : أحدها : أن النفس باقية ، والثانى : أنه ليس يلحق عن عودة النفس إلى أجسام أخر المحال الذى يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها : وذلك أنه يظهر أن مواد الأجسام التى ههنا توجد متعاقبة ، ومنتقلة من جسم إلى جسم ، وأعنى : أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة ، فى أوقات مختلفة ، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل ، لأن مادتها هى واحدة . مثال ذلك أن إنساناً مات ، واستحال جسمه إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ، فاغتذى إنسان آخر من ذلك النبات ، فكان منه منى حين تولد منه إنسان آخر .

وأما إذا فرضت أجسام أخر ، فليس تلحق هذه الحال .

والحق فى هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها ، بعد أن يكون نظراً لا يفضى إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة ، فإن هذا النحو من الاعتقاد ، يوجب تكفير صاحبه ، لكون العلم بوجود هذه الحال للانسان معلوماً للناس ، بالشرائع ، والعقول .

٢ — ومن ذلك قولهم : « إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات[١] .

وهذا أيضا كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يَعزُبُ عن علمه مثقال ذرة فى السموات ، ولا فى الأرض » .

٣ — ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته[٢] ، فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شىء من هذه المسائل .

---

(١) يذكر ابن رشد عن الإمام الغزالى قوله : أن الفلاسفة يرون أنه سبحانه لا يعلم الجزئيات ثم يقول : « وليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون (الفلاسفة) أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذى من شرطه الحدوث بحدوثها ، إذ كان (علم الله) علة لها ، لا معلولا عنها كالحال فى العلم المحدث .

وهذا هو غاية التنزيه الذى يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط ، أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم ، كما قال تعالى : « ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » . وقد اضطر البرهان إلى أنه غير عالم بها بعلم هو على صفة العلم المحدث ، فواجب أن يكون هنالك للموجودات علم آخر ، لا يكيف ، وهو علم القديم سبحانه . وكيف يمكن أن يتصور أن المشائين من الحكماء ، يرون أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات ، وهم يرون أنه سبب الإنذارات فى المنامات ، والوحى ، وغير ذلك من أنواع الإلهامات » .

(٢) يقول ابن رشد: وأما مسألة قدم العالم ، أو حدوثه ، فإن الاختلاف فيها عندى بين المتكلمين من الأشعرية ، وبين الحكماء المتقدمين ، يكاد يكون راجعاً للاختلاف فى التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء . وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات : طرفان ، وواسطة بين الطرفين ، فاتفقوا فى تسمية الطرفين ، واختلفوا فى الواسطة .

فأما الطرف الواحد ، فهو موجود وجد من شىء غيره ، وعن شىء : أعنى عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه — أعنى على وجوده — =

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم إنه عليم بالذات ، لا يعلم

ـــــــــــــــ

= وهذه هي حال الأجسام التى يدرك تكونها بالحس ، مثل تكون : الماء ، والهواء ، والأرض ، والحيوان ، والنبات . وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء ، والأشعريين ، على تسميتها محدثة .

وأما الطرف المقابل لهذا : فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان ، وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديما . وهذا الموجود مدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، الذى هو فاعل الكل ، وموجود ، والحافظ له ، سبحانه وتعالى قدره .

وأما الصنف من الموجود ، الذى بين هذين الطرفين . فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه زمان . ولكنه موجود عن شيء - أعنى عن فاعل - وهذا هو العالم بأسره. والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ؛ فإن المتكلمين يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك ؛ إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام، وهم أيضاً متفقون مع القدماء ، على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون فى الزمان الماضى، والوجود الماضى . فالمتكلمون يرون أنه متناه . وهذا هو مذهب « أفلاطون » وشيعته . و « أرسطو » وفرقته يرون أنه غير متناه ، كالحال فى المستقبل . فهذا الموجود الآخر، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهاً من الوجود الكائن المحدث ، ومن الوجود القديم ، فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم ، على ما فيه من شبه المحدث ، سماه قديماً ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث ، سماه محدثاً . وهو فى الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ، ولا قديماً حقيقياً ؛ فإن المحدث الحقيقى فاسد ضرورة ، والقديم الحقيقى ليس له علة .

ومنهم من سماه محدثا أزلياً ، وهو «أفلاطون» وشيعتة ، لكون الزمان متناهيا عندهم من الماضى . فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ؛ فإن الآراء التى شأنها هذا ، يجب أن تكون فى الغاية من التباعد ، أعنى =

زائد على الذات ، وما يجرى مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

= أن تكون متقابلة ، كاظن المتكلمون فى هذه المسألة ، أعنى أن اسم القدم والحدوث فى العالم بأسره هو من المتقابلة ، وقد تبين من قولنا أن الأمر ليس كذلك .

وهذا كله ، مع أن هذه الآراء فى العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة ، فى الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين — أعنى غير منقطع — وذلك أن قوله تعالى : « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء » يقتضى بظاهره ، أن وجوداً قبل هذا الوجود — وهو العرش والماء — وزماناً قبل هذا الزمان : أعنى المقترن بصورة هذا الوجود ، الذى هو عدد حركات الفلك . وقوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض ، والسموات » يقتضى بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود . وقوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » يقتضى بظاهره أن السماوات والأرض خلقت من شىء .

والمتكلمون ليسوا فى قولهم أيضاً فى العالم على ظاهر الشرع . بل متأولون ، فإنه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً ، فكيف يتصور فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات أن الإجماع انعقد عليه ؟ والظاهر الذى قلناه عن الشرع فى وجود العالم ، قد قال به فرقة من الحكماء ، ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين ، وإما مخطئين معذورين : فإن التصديق بالشىء قبل الدليل القائم فى النفس ، هو شىء اضطرارى ، لا اختيارى : أعنى أنه ليس لنا أن نصدق ، أو لا نصدق ، كما لنا أن نقوم ، أو لا نقوم . وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإن أخطأ ، فله أجر » .

وأى حاكم أعظم من الذى يحكم على الوجود بأنه كذا ، أو ليس بكذا ؟ ! وهؤلاء الحكماء هم العلماء ، الذين خصهم الله بالتأويل .

وقد ذكرنا فى كتاب « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يتبين فيه فساد رأى من يتسارع إلى التكفير فى كل يخالف مذهبه .

٥ — وأما السياسات : فجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحِكَم المصلحية ، المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والإيالة السلطانية . وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء .

٦ — وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها ، ومجاهدتها .

وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون ، المثابرون على ذكر الله تعالى ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومزجوها بكلامهم ، توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم .

ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ، جماعة من المتألهين ، لا يُخْلِى الله سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد فى الخبر حيث قال عليه السلام : « بهم تُمطَرون ، وبهم تُرزَقون . ومنهم كان أصحاب الكهف » .

وكانوا فى سالف الأزمنة على ما نطق به القرآن .

فتولد من مزجهم كلامَ النبوة وكلامَ الصوفية ، بكتبهم آفتان :

١ — آفة فى حق القابل .

٢ — آفة فى حق الراد .

١ — أما الآفة التى فى حق الراد فعظيمة ، إذا ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً فى كتبهم ، وممزوجا بباطلهم ينبغى أن يهجر

ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ، إذ لم يسمعوه أولا إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذى يسمع من النصرانى قول : « لا إله إلا الله عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصرانى » ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصرانى كافر ، باعتبار هذا القول ، أو باعتبار إنكاره نبوةَ — محمد عليه السلام — ؟ فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره ، فلا ينبغى أن يُخالَفَ فى غير ما هو به كافر ، مما هو حق فى نفسه . وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول: يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » رضىْ الله عنه حيث قال : « لا تعرفْ الحق بالرجال ، بل اعرفِ الحق ، تعرفْ أهله »

والعاقل يعرف الحق ، ثم ينظر فى نفس القول . فإن كان حقاً قبله ، سواء كان قائلا مبطلا ، أو محقاً . بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب الرغام[1] . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده فى كيس القلاب ، وانتزع الإبريزَ الخالص من الزيف والبَهْرَج مهما كان واثقاً ببصيرته . وإنما يزجر عن معاملة القلاّب القروى ، دون الصير فى البصير . ويمنع من ساحل البحر الأخرقُ ، دون السباح الحاذق . ويصد عن مسّ الحيّة الصبى ، دون المعزّم البارع .

ولعمرى ، لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة ، وكمال العقل فى تمييز الحق عن الباطل ، والهدى عن الضلالة ، وجب حسم الباب فى زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن ، إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التى سنذكرها ، وإن سلموا عن الآفة التى ذكرناها .

ولقد اعترَضَ على بعض الكلمات المبثوثة فى تصانيفنا ، فى أسرار علوم

---

(١) الرغام : التراب .

الدين ، طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سرائرهم ، ولم تتفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم .

وزعمت : أن تلك الكلمات من كلام « الأوائل[١] » ، مع أن بعضها من مُولَّدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر .

وبعضها يوجد فى الكتب الشرعية .

وأكثرها موجود معناه فى كتب الصوفية .

وهب أنها لم توجد إلا فى كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا فى نفسه ، مؤيداً بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فَلِمَ ينبغى أن يهجر ، أو ينكر ؟

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطرُ مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء ، والصوفية : لأن صاحب كتاب « إخوان الصفا » أوردها فى كتابه ، مستشهداً بها ومستدرجا قلوب الحمق بواسطتها إلى باطلة ، ويتداعى ذلك إلى أن يَسْتَخْرِجَ المبطلون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياه فى كتبهم .

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامىّ الغمر[٢] ، فلا يعاف العسل ، وإن وجده فى مِحْجَمة الحجام ، ويتحقق أن المِحْجَمَةَ لا تغير ذات العسل ؛ فإن نُفْرة الطبع منه ، مبنية على جهل عامى ، منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر . فيظن أن الدم مستقذر لكونه فى المحجمة ، ولا يدرى أنه مستقذر لصفة فى ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة فى العسل ، فكونه فى ظرفه ، لا يُكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغى أن يوجب له الاستقذار . وهذا وهم

(١) يقصد بـ « الأوائل » : الفلاسفة القدماء .

(٢) رجل غمر : لم يجرب الأمور .

باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق . فمهما نسبت الكلام ، وأسندته إلى قائل حَسُن فيه اعتقادُهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن اسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ، ردّوه ، وإن كان حقاً . فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! !

هذه آفة الرد .

٢ — آفة القبول : فإن من نظر فى كتبهم « كإخوان الصفا » وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم ، من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما استحسنها ، وقبلها ، وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به ، لحسن ظن حصل فيما رآه ، واستحسنه .

وذلك نوع استدراجٍ إلى الباطل .

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم ؛ لما فيها من الغدر ، والخطر .

وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب .

وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات ، يجب صون الاسماع مُخْتَلِطِ تلك الكلمات .

وكما يجب على المعزّم ألا يمس الحية بين يدى ولده الطفل ، إذا علم أنه سيقتدى به ، ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذّره بأن يحذر هو نفسه ، ولا يمسها بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله .

وكما أن المعزّم الحاذق إذا أخذ الحية ، وميز بين الترياق والسم ، فاستخرج منه الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج إليه .

وكذلك الصراف الناقد البصير ، إذ أدخل يده فى كيس القلاّب ،

وأخرج منه الابريز الخالص ، واطـّرح الزيفَ والبهرج ، فليس له أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج إليه : كذلك العالم .

وكما أن المحتاج الى الترياق ، اذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه مستخرج من الحية ، التي هي مركز السم : وجب تعريفه .

والفقير المضطر الى المال ، اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب : وجب تنبيهه على أن نُفْرتَه جهل محض ، هو سبب حرمانه عن الفائدة التي هي مطلبه ، وتَحتَّم تعريفه أن قرب الجوار بين الزَّيْف والجيد لا يجعل الجيد زَيْفاً ، كما لا يجعل الزيف جيداً ، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلا ، كما لا يجعل الباطل حقاً .

فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها .

٣ — مذهب التعليم وغائلته

ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة، وتحصيله، وتفهيمه، وتزييف مايزيف منه، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات.

وكانت قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور، من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، عنّ لى أن أبحث عن مقالاتهم: لأطلع على ما فى كتبهم.

ثم اتفق أن ورد علىّ أمر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب، يكشف عن حقيقة مذهبهم. فلم يسعنى مدافعته وصار ذلك مستحِثًّا من خارج، ضميمة للباعث الأصلى من الباطن.

فابتدأت بطلب كتبهم، وجمع مقالاتهم. وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة، التى ولدتها خواطر أهل العصر، لا على المنهاج المعهود من سلفهم. فجمعت تلك الكلمات، ورتبتها ترتيباً محكماً، مقارناً للتحقيق، واستوفيت الجواب عنها، حتى أنكر بعض أهل الحق مبالغتى فى تقرير حجتهم، وقال: «هذا سعى لهم، إنهم كانوا يعجِزون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات، لولا تحقيقك لها، وترتيبك إياها». وهذا الإنكار، من وجه حق، فلقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى[1] — رحمهما الله — تصنيفه فى الرد على المعتزلة. فقال الحارث:

«الرد على البدعة فرض».

---

(١) يقول عنه القشيرى: «عديم النظير فى زمانه: علما، وورعا ومعاملة وحالا، بصرى الأصل، مات بـ«بغداد» سنة ثلاث وأربعين ومائتين» قال «أبو عبد الله بن خفيف» اقتدوا بخمسة من شيوخنا، والباقون سلموا لهم حالهم: =

فقال أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولا . ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟ .

وما ذكره أحمد حق ، ولكن فى شبهه لم تنتشر ولم تشتهر ، فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب . ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . نعم ، ينبغى ألا يُتكلَّف لهم شبهة ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابى المختلفين إلىّ ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين ، فى الرد عليهم ؛ فإنهم لم يفهموا بعدُ حجتَهم . وذكر تلك الحجة ، وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسى أن يظن بى الغفلة عن أصل حجتهم ؛ فلذلك أوردتها ، ولا أن يظن بى أنى ، وإن سمعتها ، فلم أفهما ، فلذلك قررتها .

والمقصود : أنى قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

= « الحارث بن أسد المحاسبى » و « الجنيد بن محمد » و « أبو محمد رويم » و « أبو العباس بن عطاء » و « عمر بن عثمان المكى » ؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

ومما يروى عنه : قوله : من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص . زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة .

وقد ألف كتبا كثيرة ، يوجد بعضها مخطوطات فى «دار الكتب المصرية» وفى « مكتبة الجامعة » .

وأنفس ما نعرف من كتبه : « كتاب الرعاية لحقوق الله » ، وقد طبعته « الآنسة مرجريت سميث » . وقد طبع له كتاب « التوهم » بالقاهرة .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم .

ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة ـ مع ضعفها ـ إلى هذه الدرجة .

ولكن شدة التعصب ، دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم ، فى مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم فى كل ما نطقوا به . فجاحدوهم فى دعواهم : « الحاجة إلى التعليم ، والمعلم » ودعواهم أنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم » . وظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم ، والمعلم . وضعف قول المنكرين فى مقابلته : فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق ، وجهله بطريقه ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد عليه السلام .

فإذا قالوا : « هو ميّت » .

فنقول : « فمعلمكم غائب » .

فإذا قالوا : معلمنا قد علّم الدعاة ، وبثّهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مُشكِل » .

فنقول : « ومعلمنا قد علّم الدعاة ، وبثّهم فى البلاد ، وأكمل التعليم ؛ إذ قال الله تعالى . « اليومَ أكملتُ لكم دينَكُم ، وأتممتُ عليكم نِعمتى » وبعد كمال التعليم ، لا يضر موت المعلم ، كما لا تضر غيبته .

فبقى قولهم : « كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ؟ ، أبالنص ، ولم تسمعوه أم بالاجتهاد والرأى ، وهو مظنة الخلاف » ؟

فنقول : نفعل ما فعله مُعاذ ؛ إذ بعثه رسول الله — عليه السلام —

إلى اليمن [١] : أن نحكم بالنص ، عند وجود النص ، وبالاجتهاد ، عند عدمه ؛ بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى البلاد ؛ إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص ؛ فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع ، فيكون المستفتى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع .

فمن أشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، لفات وقت الصلاة . فإذاً ، جازت الصلاة إلى غير القبلة بناءً على الظن . ويقال : « إن المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد ، وللمصيب أجران » فكذلك فى جميع المجتهدات .

وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير ، وربما يظنه فقيراً باجتهاده ، وهو غنى باطناً ، بإخفاء ماله ، ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ ؛ لأنه لم يؤاخَذ إلا بموجب ظنه .

فإن قال : « ظن مخالفه كظنه » .

فنقول : « هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد فى القبلة ، يتبع ظن نفسه ، وإن خالفه غيره » .

---

(١) حينما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن يبعث « معاذا » قاضية بـ « اليمن » ، قال له :

بم تقضى يا « معاذ » .

فقال : بما فى كتاب الله .

قال : فإن لم تجد .

قال : بما فى سنة رسول الله .

قال : فإن لم تجد .

قال : اجتهد رأيى .

فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله .

وإن قال : فالمقلد يتبع أبا حنيفة ، والشافعى — رحمهما الله — أم غيرهما ؟ » .

فأقول : « فالمقلد فى القبلة عند الاشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ، كيف يصنع ؟ » .

فسيقول : « له مع نفسه اجتهاد . فى معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ، فكذلك فى المذاهب » .

فردّ الخلقَ إلى الاجتهاد — ضرورة — الانبياءُ والأئمةُ مع العلم أنهم قد يخطئون . بل قال رسول الله عليه السلام : « أنا أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » . أى : أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه . ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء فى مثل هذه المجتَهَدَات : فكيف نطمع فى ذلك ؟

ولهم ها هنا سؤالان :

أحدهما : قولهم : هذا وإن صح فى المجتَهَدَات ، فلا يصح فى قواعد العقائد ، إذ المخطىء غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟

فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازَع فيه : يُعرَفُ الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم . وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ، وهى خمسة ، ذكرتها فى كتاب « القسطاس المستقيم » .

فإن قال : خصومك يخالفونك فى ذلك الميزان ،

فأقول : لا يتصور أن يَفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم ، لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه .

ولا يخالف فيه أهلُ المنطق : لأنه موافق لما شرطوه فى المنطق ، غير مخالف له .

ولا يخالف فيه المتكلم : لأنه موافق لما يذكره فى أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق فى الكلاميات .

فإن قال : فإن كان فى يدك مثل هذا الميزان ، فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟

فأقول : لو أصغوا إلىّ ، لرفعت الخلاف بينهم .

وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله ؛ لتعلم أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعا لو أصغوا ، ولا يصغون بأجمعهم !!

بل قد أصغى إلىّ طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم . فلم لم يرفع إلى الآن ؟

ولمَ لمْ يَرفع « على » — رضى الله عنه — ، وهو رأس الأئمة ؟ .

أو يدّعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن .

ولأى يوم أجله ؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر لا ينتهى إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وأيتام الأولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الأموال . وقد حدث فى العالم من بركات رفعكم الخلاف ، من الخلاف مالم يكن بمثله عَهد .

فإن قال : ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم :

وهذا هو سؤالهم الثانى .

فأقول هذا أولاً ينقلب عليك ، فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك ، فيقول المتحير ، بم صرتَ أولى من مخالفيك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعرى ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامى منصوص

عليه ، فمن يصدقك فى دعوى النص ، وهو لم يسمع النصّ من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك ، مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك .

ثم هب أنه سلّم لك النصّ ، فإن كان متحيراً فى أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلى بمعجزة عيسى فيقول : الدليل على صدقى ، أنى أحيي أباك ، فأحياه ، فناطقنى بأنه محق ، فبماذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة مالا يدفع إلا بدقيق النظر العقلى ، والنظر العقلى لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق مالم يعرف السحر ، والتمييز بينه وبين المعجزة ، ومالم يعرف أن الله لا يضل عباده — وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور — فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ! فيرجع إلى الأدلة النظرية التى ينكرها ، وخصمه يدلى بمثل تلك الأدلة ، وأوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلابا عظيماً ، ولو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جوابا ، لم يقدروا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ، ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب ، بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ، ولا يسبق سريعا إلى الأفهام ، فلا يصلح للإفحام .

فإن قال قائل : فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟

فأقول : نعم ! جوابه أن المتحير لو قال : أنا متحير ، ولم يعين المسألة التى هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول : أنا مريض . ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له : ليس فى الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع ، أو إسهال ، أو غيرهما . فكذلك المتحير ينبغى أن يعين ما هو متحير فيه . فإن عين المسألة عرفته الحق فيها ، بالوزن بالموازين الخمسة ، التى لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق ،

الذى يوثق بكل ما يوزن به ، فيفهم الميزان ، ويفهم أيضاً من صحة الوزن ، كما يفهم متعلم الحساب نفس الحساب وكون المحاسب المعلم عالما بالحساب ، وصادقاً فيه .

وقد أوضحت ذلك فى كتاب « القسطاس المستقيم » فى مقدار عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ؛ فقد ذكرت ذلك فى كتاب « المستظهرى » أولا .

وفى كتاب « حجة الحق » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عرِضَ عَلَىّ « ببغداد » .

وفى كتاب « مفصل الخلاف » الذى هو اثنا عشر فصلا ثالثاً ، وهو جواب كلام عرض على « بهمدان » .

وفى كتاب « الدرج » المرقوم « بالجداول » رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم ، الذى عرض على « بطوس » .

وفى كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل بنفسه ، مقصوده : بيان ميزان العلوم ، واظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم ، لمن أحاط به .

بل المقصود أن هؤلاء ، ليس معهم شىء من الشفاء ، المنجى من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعين الإمام ، طالما جاريناهم فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم اشكالات فلم يفهموها ، فضلا عن القيام بحلها ! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا : إنه لا بد من السفر إليه .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم ، وفى التبجح بالظفر به ،

ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا ، كالمتضمخ بالنجاسة ، يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله ، وبقى متضمخاً بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة «فيثا غورس» . وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أركّ مذاهب « الفلاسفة » ، وقد رد عليه « ارسطاطاليس » ، بل استركّ كلامه ، واسترذله ، وهو المحكى فى كتاب « إخوان الصفا » ، وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر ، فى طلب العلم ، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم !

فهؤلاء أيضاً جربناهم ، وسبرنا ظاهرهم ، وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ، ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم فى انكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى ، مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال : هات علمه ، وأفدنا من تعليمه : وقف وقال : الآن إذا سلمت لى هذا فاطلبه ; فإنما غرضى هذا القدر فقط ، إذ علِم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه .

فهذه حقيقة حالهم ، فاخبرهم تَـقْـلُهُم(١) فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم .

---

(١) تبغضهم .

٤ — طرق الصوفية

ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل . وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ؛ حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر علىّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » « لأبى طالب المكىّ » - رحمه الله - وكتب « الحارث المحاسبى » والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » [1] ،

---

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم . أصله من نهاوند ، ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج : فلذلك يقال له القواريرى . وكان فقيها على مذهب أبى ثور وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة مات سنة سبعة وتسعين ومائتين ٢٩٧ .

قال « الروذبارى » : سمعت « الجنيد » يقول : لرجل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله — عز وجل — ، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة . والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله — تعالى — وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم انقص من أعمال البر ذرة ، إلا أن يحال بى دونها .

وقال « الجنيد » : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول — عليه الصلاة والسلام —

وقال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ « عن الرسالة القشيرية » .

و « الشبلى »[1] ، و « أبى يزيد البسطامى »[2] قدّس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصّلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لى أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يُعلم حدُّ الصحة ، وحدُّ الشبع . وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان : وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حدّ السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء . والصاحى يعرف حد السكر ،

---

(١) بغدادى المولد والمنشأ ، وأصله من « أسروشنة » . صحب « الجنيد » ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته حالا ، وظرفا ، وعلما ؛ مالكى المذهب ، عاش سبعا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، وقبره بـ « بغداد » .

وكان « الشبلى » إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول : هذا شهر عظمه ربى ، فأنا أول من يعظمه .

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين : قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين وقيل أربع وثلاثين ومائتين .

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصودا مشهورا بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ — فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه .

ومن كلامه : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة « انظر الرسالة القشيرية » .

وأركانه ، وما معه من السكر شىء . والطبيب فى حالة المرض ، يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وكان قد حصل معى — من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها ، فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية ، و العقلية — إيمانٌ يقينىٌ بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر .

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله ، قطعُ علاقة القلب عن الدنيا : بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالى : فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من الجوانب .

ولاحظت أعمالى — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب

الجاه ، وانتشار الصيت : فتيقنت أنى على شَفَا جُرُفٍ هارٍ ، وأنى قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافى الأحوال .

فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً . وأقدّم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى . لا تَصْدُقُ لى رغبة فى طلب الآخرة ، بُكْرَةً إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة ، فتفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تَجَاذَبُنى سلاسلها إلى المُقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيلَ الرحيلَ ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل ، رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ . وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ . فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ؛ فإنها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلّم الصافى عن منازعة الخصوم ، وربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها : رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[1] . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الإضطرار : إذ أقفل الله على لسانى ، حتى اعتُقِل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً ، تَطْييباً لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا استطيعها ألبتة ، حتى أورثَتْ هذه العقْلةَ فى اللسان ، حزناً فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومَرَاءَةُ الطعام والشرب ، فكان لا ينساغ لى ثَرِيد ،

---

(١) فى نسخة أخرى : ست وثمانين وأربعمائة .

ولا تنهضم لى لقمة . وتعدّى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر ، الذى لا حيلة له . فأجابنى الذى يُجيبُ المُضطَرَّ إذا دَعاه . وسهـــل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمـال ، والأولاد ، والأصحاب .

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبّر فى نفسى سفر الشام ، حذراً أن يطّلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمى ، فى المُقام بالشام . فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعاودها أبداً . واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ؛ إذ لم يكن فيهم من يُجوّز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ؛ إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان ، لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قَرُب من الولاة ، وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على ، وإعراضى عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوى ، وليس له سبب ، إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزُمْرة العلم .

ففارقت بغداد ، وفرّقت ما كان معى من المال ، ولم أدّخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مُرْصَدٌ للمصالح ؛ لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم أر فى العالم مالا يأخذه العالم لعياله ، أصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين ، لا شغل لى إلا العزله ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصّلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى .

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى .

ثم تحركت فىّ داعية فريضة الحج ، واستمداد من بركات مكة ، والمدينة ، وزيارة رسول الله ﷺ ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، صلوات الله عليه . فسرت إلى الحجاز .

ثم جذبتنى الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه .

فآثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفيه القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير فى وجة المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لى الحال إلا فى أوقات متفرقة . لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها ، فتدفعنى عنها العوائق، وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها .

والقدر الذى أذكره لينتفع به : أنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة . وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء .

وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، لِيُغَيِّروا شيئاً من سيرهم، وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون فى طريقة، طهارتُها ـ وهى أول شروطها ـ تطهيرُ القلب بالكلية عما سوى الله تعالى.

ومفتاحُها — الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة — استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله.

وآخرها الفناء بالكلية فى الله؟

وهذا آخرها بالإضافة إلى مايكاد يدخل تحت الإختيار والكسب من أوائلها. وهى على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة تبتدئُ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد.

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكنه الاحتراز عنه.

وعلى الجملة: ينتهى الأمر إلى قرب، يكاد يتخيلُ منه طائفةٌ الحلولَ.

وطائفةٌ الاتحادَ.

وطائفةٌ الوصولَ.

وكل ذلك خطأ.

وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب «المقصد الأسنى». بل الذى لا بَسَتْهُ تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول:

وكان ماكان، مما لست أذكره ... فظن خيراً، ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة : فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الأولياء — على التحقيق — هى بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله — عليه السلام — حيث تبتل ، حين أقبل إلى جبل « حراء » ، حين كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه » .

وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها .

فمن لم يرزق الذوق : فيتيقنها بالتجربة والتسامع إنْ أكْثَرَ معهم الصحبةَ ، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً . ومن جالسهم ، استفاد منهم هذا الإيمان . فهم القوم ، لا يشقى جليسهم .

ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه فى كتاب « عجائب القلب » من كتب أحياء علوم الدين .

والتحقيق بالبرهان علم .

وملابسة عين تلك الحالة ذوق .

والقبول من التسامع ، والتجربة ، بحسن الظن ، إيمان .

فهذه ثلاث درجات : « يَرْفَعُ الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم دَرجات » .

ووراء هؤلاء قوم جهّال : هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ، ويسخرون . ويقولون : العجب ! إنهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى : « ومنهم من يَستمِعُ إليك ، حتى إذا خَرجُوا من عندِكَ قالوا للذين أوتوا العِلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طَبعَ الله على قلوبهم ، واتَّبعوا أهْواءَهم » ، ... « فأصمَّهم ، وأعمى أبصارهم » .

ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم : حقيقة النبوة ، وخاصيتها ولا بد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسيس الحاجة إليها .

حقيقة النبوة

واضطرار كافة الخلق إليهــــا

اعلم : أن جوهر الإنسان فى أصل الفطرة ، خلق خالياً ، ساذَجا ، لا خبر معه من عوالم الله تعالى . والعوالم كثيرة ، لا يحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : وَما يَعلمُ جنودَ ربِّكَ إلاَّ هُو » .

وإنما خبرهُ فى العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات خلق ليضطلع الإنسان به على عالم من الموجودات . ونعنى بالعوالم ، أجناس الموجودات فأول ما يخلق فى الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ؛ بل هى كالمعدوم فى حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال وهو أوسع عوالم المحسوسات .

ثم ينفخ فيه السمع ، فيسمع الأصوات ، والنغمات .

ثم يخلق له الذوق .

وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات : فيخلق فيه التمييز ، وهو قريب من سبع سنين . وهو طور آخر من أطوار وجوده . فيدرك فيه أموراً زائدة على المحسوسات لا يوجد منها شىء فى عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقــــل : فيدرك الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات ، وأموراً لا توجد فى الأطوار التى قبله .

(ووراء العقل طور آخر ، تنفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون فى المستقبل ، وأموراً أخر ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز) .

(وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها ، واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها . وذلك عين الجهل: إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ، ولم يوجد فى حقه ، فيظن أنه غير موجود فى نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان ، والأشكال، وحكى له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ، ولم يقرّ بها) .

(وقد قرّب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ؛ اذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه — وقيل له : ان من الناس من يسقط مغشياً عليه ، كالميت ، ويزول عنه إحساسه ، وسمعه ، وبصره ، فيدرك الغيب — لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها . فبأن لا يدركها مع ركودها ، أولى ، وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود ، والمشاهدة . فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً : عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر فى نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل) .

والشك فى النبوة إما أن يقع :

فى إمكانها .

أو فى وجودها ، ووقوعها .

أو فى حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها ، وجودُها .

ودليل وجودها : وجود معارف فى العالم لا يتصور أن تنال بالعقل :

كعلم الطب ، والنجوم ، فإن من بحث عنها ، علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى ؛ وتوفيق من جهة الله تعالى . ولا سبيل إليها بالتجربة . فمن الأحكام النجومية مالا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين بهذا البرهان ، أن فى الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور ، التى لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا فقطرة من بحرها . إنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها : وهو مدركاتك فى النوم . ومعك علوم من جنسها ، فى الطب ، والنجوم ، وهى معجزات الأنبياء ، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا .

وأما ماعدا هذا من خواص النبوة ، إنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ؛ لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته ، وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبى خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلا : فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم .

وذلك الأنموذج يحصل فى أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه . فهذه الخاصيّه الواحدة ، تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك فى شخص معين : أنه نبى أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع . فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء ، بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وأن لم تشاهدهم . ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون « الشافعى » — رحمه الله — فقيهاً ، وكون « جالينوس » طبيباً ، معرفة بالحقيقة

لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب ، وتطالع كتبهما وتصانيفهما : فيحصل لك علم ضرورى بحالها .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر فى القرآن ، والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة . وأعضد ذلك بتجربة ماقاله فى العبادات ، تأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله :

« من عمل بما علم ، ورثه الله علم مالم يعلم » .

وكيف صدق فى قوله : « من أعان ظالما ، سلطه الله عليه » .

وكيف صدق فى قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى[1]) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة[2] » .

فإذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه .

فمن هذا الطريق ، أطلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العصا ثعبانا ، وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر ، وتخييل ، وأنه من الله إضلال فإنه « يُضِلُّ مَنْ يشاء ويهدى من يَشَاءُ » .

وترد عليك أسئلة المعجزات : فإن كان مُسْتَنِدًا إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة ، فيَنْجَزِمُ إيمانك بكلام مرتب فى وجه الإشكال والشبهة عليها .

---

(١) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وضعناها لبيان المعنى .

(٢) وفى سنن ابن ماجه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ومن جعل الهموم هما واحدا ، همَّ المعاد ، كفاه الله همَّ دنياه . ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا ، لم يبال الله فى أى أوديته هلك » .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن فى جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضرورى ، لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين بل من حيث لا يدرى ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد . فهذا هو الإيمان القوى العلمى .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية .

فهذا القدر من حقيقة النبوة كافٍ فى الغرض ، الذى أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

سبب نشر العلم

بعد الإعراض عنـــه

ثم إنى لما واظبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشر سنين ، وبان لى فى أثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لا أحصيها : مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهانى ، ومرة بالقبول الإيمانى : أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأعنى بالقلب حقيقة روحه ، التى هى محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ، ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك ، له صحة وسلامة ، ولا ينجو « الا مَنْ أتَى اللهَ بقلبٍ سَليم » وله مرض فيه هلاكه الأبدى الأخروى ، كما قال تعالى « فى قُلوبِهم مَرَضٌ » وأن الجهل بالله سُم مُهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى داؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيى ، وطاعته بمخالفة الهوى ، دواؤه الشافى ، وأنه لاسبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية : كما لا سبيل إلى معالجة البدن ، إلا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة ، بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء ، الذين أخذوها من الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لى — على الضرورة — أن أدوية العبادات — بحدودها ، ومقاديرها المحدودة ، المقدرة من جهة الأنبياء — لا يُدرَك وجهُ تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص ، بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل .

وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار ، وبعضها ضِعْفُ البعض فى الوزن والمقدار ، فلا يخلوا اختلاف مقاديرها عن سر ، هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب ، مركبة

من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التى لا يُطَّلَعُ عليها إلا بنور النبوة .

ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط — بطريق العقل — لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهى فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية .

وكما أن فى الأدوية أصولا هى أركانها ، وزوائد هى متمماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير فى أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن ، متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أنْ عَرَّفَنَا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى ها هنا مجرى العقل ، ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، فى مدة الخلوة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات فى أصل النبوة .

ثم فى حقيقة النبوة .

ثم فى العمل بما شرحته النبوة .

وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ؛ فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هى أربعة :

١ - سبب من الخائضين فى علم الفلسفة .

٢ — وسبب من الخائضين فى طريق التصوف .

٣ — وسبب من المتنسبين إلى دعوى التعليم .

٤ — وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإنى تتبعت مدةً آحاد الخلق ، أسأل من يقصّر منهم فى متابعة الشرع ، وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له مالك تقصّر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعد لها ، وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع مالا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبر نفسك فى طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفى ، الذى هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجملا بالإيمان ، وتشرفاً بذكر الشرع ! .

فقائل يقول : « هذا أمر ، لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير ، بين الفضلاء ، لا يصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة » وهلم جرا ، إلى أمثاله . . .

وقائل ثان يدّعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة .

وقال ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول « الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟ » .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنى قرأت علم الفلسفة ،

وأركت حقيقة النبوة : وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة . وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل ، والتنازع ، والاسترسال ، فى الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال ، حتى أدخل فى حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد ، هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الألهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب « ابن سينا » و « أبى نصر الفارابى » .

وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن . ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعا من الفسق والفجور ! .

وإذا قيل له : « إن كانت النبوة غير صحيحة فلِمَ تصلى ؟ » فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ! » وربما قال : « الشريعة صحيحة ، والنبوة حق » . فيقال : فلم تشرب الخمر ؟ فيقول : « إنما نهى عن الخمر ؛ لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتى محترز عن ذلك ، وإنى أقصد به تشحيذ خاطرى » حتى أن « ابن سينا » فى وصية له كتب فيها : أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولا يقصر فى العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً ، بل تداوياً وتشافيا ، فكان منتهى حالته فى صفاء الإيمان ، والتزام العبادات ، أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافى .

فهذا إيمان من يدعى الإيمـــان منهم وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم ضعفُ اعتراض المعترضين عليهم ؛ إذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك ، مما هو ضرورى لهم ، على ما بينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق ، من ضعف إيمانهم إلى هـذا الحد ، بهذه

الأسباب ، ورأيت نفسى مُلِبَّة[1] بكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندى من شربة ماء ، لكثرة خوضى فى علومهم ، وطرقهم . أعنى طرق « الصوفية » و « الفلاسفة » و « التعليمية » ، والمتوسمين من العلماء ، انقدح فى نفسى أن ذلك متعين ، فى هذا الوقت ، محتوم .

فما تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟

ثم قلت فى نفسى متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ؟ ومصادمة هذه الظلمة ، والزما زمان الفترة ، والدور دور الباطل ،ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنَّى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟ .

فترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، تعللا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة ، فقدّر الله تعالى أن حرّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى « نيسابور » لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كان ينتهى - لو أصررت على الخلاف - إلى حد الوحشة .

فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغى أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسلَ والاستراحةَ ، وطلبَ عز النفس وصونها عن أذى الخلق ولم تُرَخِّصُ نفسك بعسر معافاة الخلق ، والله تعالى يقول : «بسم الله الرحمن الرحيم ألم أَحَسِبُ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يُفْتَنونَ ؟ ولقد فَتَنَّا الذين من قبلهم » الآية .

ويقول عز وجل ، لرسوله وهو أعز خلقه : ولقد كُذِّبَتْ رسلٌ من

---

(١) ألب بالمكان . أقام به ولزمه .

قَبْلِكَ، فَصَبَرُوا، على ما كذبوا، وأوذُوا، حتى أتاهُمْ نَصرنا ولا مُبدِّلَ لِكلماتِ الله، ولقد جاءَكَ مِنْ نَبأ المرسَلين».

ويقول عز وجل: «بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم» إلى قوله «إنما تُنذِرُ من اتبع الذكر»

فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب، والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية.

وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة، متواترة، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة[1]. وقد وعد الله سبحانه بأحياء دينه على رأس كل مائة، فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات، ويسر الله تعالى الحركة إلى «نيسابور» للقيام بهذا المهم فى ذى العقدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة. وكان الخروج من «بغداد» فى ذى القعدة، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنه.

وهذه حركة قدرها الله تعالى، وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من «بغداد» والنزوع عن تلك الأحوال، مما خطر إمكانه أصلا بالبال، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال، و«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن».

وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت! فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت فى ذلك الزمان، أنشر العلم الذى به يكسب الجاه، وأدعوا إليه بقولى وعملى، وكان ذلك قصدى، ونيتى. وأما الآن فأدعو

(١) روى أبو داود، والحاكم، والبيهقى: «ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

إلى العلم الذى به يترك الجاه . ويعرف به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيتى وقصدى ، وأمنيتى ، يعلم الله ذلك منى .

وأنا أبغى أن أصلح نفسى ، وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضى ؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهده — أنه لاحول ولا قوة ، إلا بالله العلى العظيم ، وأنى لم أتحرك لكنه حركنى ، وأنى لم أعمل ، لكنه إستعملنى ، فأسأله أن يصلحنى أولا ، ثم يصلح بى ، ويهدينى ، ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقا ، ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ، ويرزقنى اجتنابه .

* * *

ونعود الآن إلى ماذكرناه من أسباب ضعف الإيمان فيمن ذكر بذكر طريق إرشادهم ، وإنقاذهم من مهالكهم .

أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم فعلاجه ماذكرناه فى كتاب « القسطاس المستقيم » ، ولا نطول بذكره فى هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم فى سبعة أنواع ، وكشفناها فى كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة ، حتى أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم ، وغيرهما ، وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك . وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ؛ لأنه من نفس علمهم ، ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم ، كالنجوم ، والطب ، والطبيعة ، والسحر ، والطلسمات مثلا ، من نفس علمه برهانَ النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكيم ، له طالع مخصوص ،

يقتضى طالعه أن يكون متبوعا .

وليس هذا من النبوة فى شىء .

بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات. فإن لم يجوّز هذا ، فقد أقمنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده. وإن جوّز هذا ، فقد أثبت أن ها هنا أمورا تسمى خواص، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلا ، بل يكاد العقل يكذبها ، ويقضى باستحالتها . فإن وزن دانق[1] من الأفيون ، سم قاتل ؛ لأنه يجمد الدم فى العروق ، لفرط برودته، والذى يدعى علم الطبيعة ، يزعم أن ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بعنصرى الماء والتراب ، فهما العنصران الباردان . ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب ، لا يبلغ تبريدهما فى الباطن إلى هذا الحد . فلو أخبر طبيعى بهذا ، ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على استحالته أن فيه نارية ، وهوائية ، والهوائية والنارية لا تزيد بها برودة ، فنقدر الكل ماء وترابا ، فلا يوجد هذا الإفراط بالتبريد فإن انضم إليه حاران فبأن لا يوجب أولى » . ويقدر هذا برهاناً !

وأكثر براهين الفلاسفة فى الطبيعيات والإلهيات ، مبنى على هذا الجنس ؛ فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته .

ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادّعى مدع ، أنه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول .

ولو قيل لواحد . « هل يجوز أن يكون فى الدنيا شىء هو بمقدار حبة ،

---

(١) الدانق بفتح النون وكسرها : سدس الدرهم .

يوضع فى بلدة ، ليأكل تلك البلدة بجملتها ، ثم يأكل نفسه فلا يُبقى شيئاً من البلدة وما فيها ، ولا يَبْقى هو فى نفسه ؟ ، لقال هذا محال ، وهو من جملة الخرافات ! وهذه حالة النار ، ينكرها من لم ير النار ، إذا سمعها .

وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل .

فنقول للطبيعى : « قد اضطررت إلى أن تقول : فى الأفيون خاصية فى التبريد ، ليس على قياس المعقول بالطبيعة . فلم لا يجوز أن يكون فى الأوضاع الشرعية من الخواص ، فى مداواة القلوب ، وتصفيتها ، مالا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يُبْصَر ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هى أعجب من هذا ، فيما أوردوه فى كتبهم ، وهى من الخواص العجيبة ، المجربة فى معالجة الحامل ، التى عسر عليها الطلق ، بهذا الشكل :

د	ط	ب
ج	ه	ز
ح	ا	و

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

يكتب على خرقتين ، لم يصبهما ماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينها ، وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد فى الحال إلى الخروج . وقد أقروا بإمكان ذلك ، وأوردوه فى كتاب « عجائب الخواص » وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة . يكون مجموع ما فى جدول واحد خمسة عشر ، قرأته فى طول الشكل ، أو فى عرضه ، أو على التأريب .

فياليت شعرى ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هى لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها اختلاف هذه الأوقات ، وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة .

والعجب أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الأوقات ، فنقول « أليس يختلف الحكم فى الطالع ، بأن تكون الشمس فى وسط السماء ، أو فى الطالع ، أو فى الغارب حتى يَبْنُوا على هـذا فى تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار ، والآجال ، ولا فرق بين الزوال ، وبين كون الشمس فى وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس فى الغارب . فهل لتصديقه سبيل ؟ إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، جرّب كذبه مائة مرة . ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : « إذا كانت الشمس فى وسط السماء ، ونظر إليها الكوكب الفلانى ، والطالع هو البرج الفلانى فلبست ثوباً جديداً فى ذلك الوقت قتلتَ فى ذلك الثوب ! » فإنه لا يلبس الثوب فى ذلك الوقت وربما يقاسى فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم ، وقد عرف كذبه مرات ؟

فليت شعرى ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ، ويضطر إلى الاعتراف بأنها خوص — معرفتها معجزة بعض الأنبياء — كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبى صادق ، مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ؟ فإن أنكر فلسفى إمكان هذه الخواص فى أعداد الركعات ورمى الجمار ، وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلا .

فإن قال : قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح فى نفسى تصديقه ، وسقط من قلبى استبعاده ، ونفرته ، وهذا لم أجربه ، فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟ وإن أقررت بإمكانه .

فأقول : إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء ، فقد جربوا ، وشاهدوا الحق فى جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم ، تدرك بالمشاهدة بعض ذلك .

على أنى أقول : «وإن لم تجرّ به فيقضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً ، فإنا لو فرضنا رجلا بلغ ، وعقل ، ولم يجرب المرض فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه فى معرفة الطب منذ عقل . فعجن له والده دواء ، فقال : « هذا يصلح لمرضك ، ويشفيك من سقمك » . فماذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مراً كريه المذاق ؟ أيتناول ؟ أو يكذب ويقول : « أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء ، لتحصيل الشفاء ، ولم أجربه ؟» فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك أهل البصائر فى توقفك !

فإن قلت : « فبم أعرف شفقة النبى عليه والسلام ، ومعرفته بهذا الطب ؟ » فأقول :

« وبم عرفت شفقة أبيك ، وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن أحواله ، وشواهد أعماله فى مصادره ، وموارده ، علما ضرورياً لا تتمارى فيه » .

ومن نظر فى أقوال رسول الله عليه السلام ، وما ورد من الأخبار فى اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه فى جر الناس بأنواع الرفق ، واللطف ، إلى تحسين الأخلاق ، وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى مالا يصلح إلا به دينهم ، ودنياهم ، حصل له علم ضرورى ، بأن شفقته على أمته ، أعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال ، وإلى عجائب الغيب ، الذى أخبر عنه فى القرآن على لسانه ، وفى الأخبار ، وإلى ماذكره فى آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره : علم ـ علما ضرورياً ـ أنه بلغ الطور الذى وراء العقل ، وانفتحت له العين التى ينكشف منها الغيب ، الذى لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التى لا يدركها العقل .

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضرورى ، بتصديق النبى - عليه الصلاة والسلام - فجرب ، وتأمل القرآن ، وطالع الأخبار ، تعرف ذلك بالعيان.

وهذا القدر يكفى فى تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة إليه فى هذا الزمان .

وأما السبب الرابع - وهو ضَعْف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء - فيُداوى هذا المرض بثلاثة أمور : -

أحدها : أن تقول : « إن العالم الذى تزعم أنه يأكل الحرام ، معرفته بتحريم ذلك الحرام ، كمعرفتك بتحريم الخمر ، ولحم الخنزير ، والربا ، بل بتحريم الغيبة ، والكذب ، والنميمة . وأنت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ؛ فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين . وكم من مؤمن بالطب ، لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا مَحْمِل هفوات العلماء .

الثانى أن يقال للعامى : ينبغى أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه فى الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون له شفيعاً ، حتى يتساهل معه فى أعماله ، لفضيلة علمه ، وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن ، فهو ، وإن ترك العمل ، يُدلى بالعلم . أما أنت أيها العامى ، إذا نظرت إليه ، وتركت العمل ، وأنت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك . ولا شفيع لك ! » .

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيق ، لا يقارف معصية إلاّ على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصى أصلا : إذ العلم الحقيق

ما يعرّف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا ، ومن عرف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو أدنى .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التى يشتغل بها أكثر الناس ؛ فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جُرأة على معصية الله تعالى .

وأما العلم الحقيق فيزيد صاحبه خشية ، وخوفا ، ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصى إلا الهفوات التى لا ينفك عنها البشر فى الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الأيمان . فالمؤمن مفتن توّاب . وهو بعيد عن الإصرار ، والإكباب .

* * *

هذا ما أردت أن أذكره فى ذم الفلسفة ، والتعليم ، وآفاتهما ، وآفات من أنكر عليهما ، لا بطريقه .

ونسأل الله العظيم ، أن يجعلنا عن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

خاتمة[1]

الطريق

— ١ —

من الطبيعي ، أن ينشأ في الأقاليم التي لم يوجد فيها كتاب مقدس ، أو التي اندثرت فيها رسالة الرسل — رجال يحاولون ابتداع مذهب في ماوراء الطبيعة .

من الطبيعي ، أن يكون الأمر كذلك ، في هذه الأقاليم ، ذلك أن الإنسان ، بطبيعته طلعه ، وهو يحاول معرفة العلل والأسباب ؛ ويتشوف إلى رؤية المجهول ، ويتطلع إلى الكشف عن عالم الغيب .

أما في البيئات التي فيها نص مقدس ، يحتفظ بنضرته ، ولا يشك إنسان في صحته ؛ فإنه من غير الطبيعي أن ينشأ ، بجوار هذا النص المعصوم ، اختراعات ذهنية ، تتصل بعالم الغيب : ذلك أن ثمرة التفكير الإنساني عرضة للخطأ في الذات الآلهية ؛ أو في الصفات الآلهية ، والخطأ في عالم الغيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة .

---

(١) الآن . وقد انتهينا من كتاب المنقذ ؛ نريد بتوفيق الله . أن نقدم هذه الكلمة الختامية « هدية لروح الإمام الغزالي » وهي بمثابة تلخيص للنهج الذي ينبغي أن يسلكه كل من يريد المعرفة ، في عالم « ما وراء الطبيعة » سائراً على السراط المستقيم : سواء في ذلك هؤلاء الذين ، يريدونه في صورة سهلة المأخذ ؛ قريبة المتناول ؛ فيلتزمون الإتباع ؛ ويبتعدون عن المتشابه ، والذين — يريدونه كشفا وبصيرة وإلهاماً : فيسيرون في طريق النور إلى نهايته .

وهذه الكلمة : إما مستمدة من الغزالي مباشرة ، وإما معبرة عن اتجاهه . وهي ، على أي وضع ، صورة مصغرة للاتجاه العام للصوفية على وجه العموم .

وما دام الأمر كذلك . فإن الطريق المستقيم ، أن لا ينشأ بجوار النص المقدس اختراع عقلى يتصل بماوراء الطبيعة هو عرضة للخطأ لا محاله .

التسليم ، للنص المقدس هو المبدأ السليم ، عند ذوى العقول الحكيمة ، وقد حدث مرة . أن أخذ سقراط ، ورفقاؤه ، يتحدثون عن (خلود النفس) ويحاولون إقامة الأدلة على ذلك ، فلا يكاد يستقيم لهم الأمر فى يقين جازم ، ثم « يسكت سقراط ، ويسكت الجميع . وبعد هنيهه يقول سيمياس : العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ، ممتنع أو عسير جداً فى هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث ، قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق ، وإما ـ إن امتنع ذلك ـ استكشاف الدليل الأقوى ، والتذرع به فى إجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع البحر ، على لوح من خشب ، ما دام لا سبيل لنا إلى مركب أمتن ، وآمن ، أعنى إلى وحى إلهى[1] » .

المركب الأمتن ، والآمن فى رأى سيمياس ، هو الوحى الإلهى ، ومعنى ذلك فى وضوح تام : أنه لو كان لدى سيمياس ، أو لو كان فى العهد اليونانى نص مقدس صحيح ، لاستسلم إليه الجميع دون نقاش ، أو جدل . أما استعمال العقل فى عالم الغيب ، فإنه فى أغلب الأحايين ، مخاطرة لقطع البحر على لوح من خشب . وهيهات أن ينجو من يفعل ذلك .

— ٢ —

واستسلم المسلمون الأوائل للنص المقدس : متبعين فى ذلك الطريق القويم ، ومضى الصدر الأول للإسلام دون جدال فى العقيدة ، ودون محاولة عقلية لاختراع « ما وراء الطبيعة » أو بتعبير آخر ، دون محاولة عقلية ، لتحديد ما لا يحد وتقييد ما لا يقيد .

---

(١) يوسف كرم — تاريخ الفلسفة اليونانية .

وكان أول انحراف ، منظم ، قوى عن هذا المبدأ السليم ، هو الطريق الذى سلكه « واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ومدرستهما » .

إنهما لم يتعمدا انحرافاً ولا خروجا عن الطريق السوى ، وإنما خُيِّل إليهما أن عملهما ، خدمة للإسلام ، وخدمة للمسلمين .

ولكنهما بعملهما ، حكما العقل فى الدين ، بل لقد أخذا وأخذت مدرستهما فى وضع تشريع ، يفرض على الله سبحانه وتعالى ، الفروض ، ويوجب عليه الواجبات ؛ لقد أخذا يوجبان عليه ، ويمنعان عليه فهو سبحانه ، يجب عليه أن يفعل كذا ؛ ويجب عليه أن لا يفعل كذا ، وتحكم عقلهما فى الدين ، وفى الله تعالى .

ولأن عقل كل إنسان ، مختلف عن عقل الآخر ، فقد انقسمت المدرسة الاعتزالية إلى مدارس ، ومذاهب لا تكاد تحصر .

وكانت النتيجة ، لتحكيم العقل فى الدين ، أن بدأ الافتراق والاختلاف العقدى فى البيئة الإسلامية .

لم يستسلم المعتزلة ، استسلام المؤمن المعترف بعجزه وقصوره تجاه الذات الآلهية ، كما فعل الصدر الأول . وإنما وثقوا بعقولهم الثقة المطلقة . فكان من نتيجة ذلك الشقاق والتفرق .

وحينما بدأ المسلمون ، فى أوائل « العصر العباسى » ، يترجمون الثقافات الأجنبية ، فإنهم لم يستسيغوا ترجمة الإلهيات والأخلاق ، ذلك أن يقينهم المطلق فى نصهم المقدس ، جعلهم يستهينون بكل ما عداه ، مما يتصل بما « وراء الطبيعة أو بالأخلاق » وكان موقفهم فى ذلك سليما كل السلامة فإن كل فكرة ، أو كل رأى متصل بما وراء الطبيعة ، أو بالأخلاق ، يخالف ما أتى به الوحى ، إما أن يكون خرافة ، أو ضلالا عقليا ، والحياة الجادة ، لا تستسيغ إنفاق الزمن ، فى دراسة خرافات ، أو أضاليل عقلية .

ولكن المأمون ـ ومن ورائه المعتزلة ـ فعلوا ما امتنع جمهرة المسلمين عن

فعله ، فترجموا إلهيات اليونان ، وأخلاق اليونان . فأصبح بذلك البحث العقلى ، أو الاختراع العقلى ، أو الابتداع العقلى فى الدين ، هواية عقلية ، يجرى وراءها الكثيرون .

— ٣ —

ونشأ الفلاسفة :

وأخضع الفلاسفة كل شيء ، لعقولهم ، وأخذوا يرسمون القواعد ، ويقيمون الأدلة ، ويبتعدون كثيراً أو قليلا عما فهمه المسلمون عن رسولهم وعمــا استشعروه من الروح العامة للإسلام ، على وجــه العموم .

والواقع أن إقامة « ما وراء المادة أو الأخلاق على العقل . إنما هو شهوة أو هوى ، ذلك أنه منذ ابتداء العهد اليونانى ، وهذا النهج من البحث فى إخفاق متتابع ، وفى فشل مستمر ، وفى تناقض ملازم ، ورجاله يناقض بعضهم البعض ، ويهدم كل ما بناه الآخرون ، وعلى توالى الزمن ، تنهار الآراء ، وتنشأ آراء أخرى لا تلبث أن تنهار ، وهكذا دواليك .

ومع رؤية كل باحث عقلى ، لهذه النتائج المنهارة باستمرار : فإن ذلك لم يقم عظة واعتباراً فى نظرهم ، وإنما استمروا على الطريقة العقلية ، رغم رؤيتهم فى وضوح مآل أبحاث سابقيهم المتهافتة .

— ٤ —

ونشأ الإمام الغزالى ، والعالم الإسلامى يموج ويضطرب ، فى ضلال الجرى وراء ابتداع المذاهب العقلية فى الدين وكان من توفيق الله ، أن حجة الإسلام ، قد منح طبيعة طلعة ، وذهناً ثاقباً ، وتفكيراً حكيما ، وتربية دينية سليمة منذ نشأته الأولى ، وأخذ تفكره يجول فى جميع المناحى الدينية : فلاحظ أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب

على كثرة الفرق ، وتباين الطرق ، بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون .

فاقتحم لجة هذا البحر العميق ، وخاض غمرته ، خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وتوغل فى كل مظلمة ، وتهجم على كل مشكلة ، وتقحم كل ورطة ، وتفحص عن عقيدة كل فرقة وكان نتيجة ذلك كله أن فقد ثقته فى العلم ، ووجد نفسه عاطلا عن علم يقينى ، فأراد أن يبدأ من البسائط ، وأن يجعل أساسه قوياً متيناً حتى ينتهى إلى اليقين المطلق فيما يعلم .

ولكنه اختبر الثقة فى المحسوسات ، فلم تسمح نفسه بالتسليم باليقين فيها ، وامتحن الثقة بالعقليات ، فانهارت العقليات .

وَمَرّ إذَن الإمام الغزالى ، بتجربة قاسية : هى تجربة الشك فى الحسيات والعقليات .

واستمر على ذلك شهرين ، هو فيها على مذهب السفسطة « بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » .

ثم شفاه الله تعالى من ذلك المرض « وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقا بها على أمن ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف » .

خرج الإمام الغزالى ، من هذه التجربة على نور من ربه ، وعلى بصيرة من أمره : فحاول ما استطاع أن يرسم الطريق الصحيح للشغوفين بالمعرفة ، والمتطلعين إلى الهداية ، والمستشرفين إلى العلم بالملأ الأعلى .

لقد أراد أن يرسم الطريق ، الذى يرضى أتباعه الله ورسوله .

أراد أن يرسمه ، للحيارى ، والمتطلعين إلى الهدى ، وللشاكين الآملين فى اليقين ، وللمسترشدين الذين يريدون أن يستمسكوا بحبل الله المتين .

راد أن يرسم هذا الطريق ، بعد تجربته التى مر بها ، فرسمه فى ثقة المجرب ، وفى إحكام الخبير .

— ٥ —

إن الأساس الخادع ، الذى لا يعدوا أن يكون هوة عميقة يتردى فيها الكثيرون ، إنما هو إرادة تشييد « ما وراء الطبيعة على العقل » — فما العقل بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة إلا كالسراب الخادع ، الذى غرر بكثير من الظامئين إلى معرفة ميدان الغيب .

ثم ان هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه ، إنه من جانب : انصراف عن النص الآلهى الى العقل ، ومن جانب آخر : إقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة .

وفى ذلك لا شك صرف للناس ، عن التأمل فى النص المقدس كمصدر لمعرفة الآلهيات وفيه كذلك تقليل شأن النبوة .

وهجم الإمام الغزالى ، على هذا النهج ، هجوماً عنيفاً ، ولم يفتر قط عن مهاجمته منذ أن ألف كتابه القيم « تهافت الفلاسفة » إلى أن انتهت به الحياة .

لقد كان كتابه « تهافت الفلاسفة » محاولة موفقه كل التوفيق ، جريئة كل الجرأة ، طريفة كل الطرافة ، وما كان المقصد الأول ، والهدف الأساسى لهجومه ، هدم الآراء فى نفسها ، فبعضها صحيح ، موافق للدين ، ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالى ، المنهج العقلى ، الذى استندت إليه هذه الآراء .

« نخلود النفس » مثلا . رأى يقول به الغزالى ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام الغزالى ، حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى إثبات خلود النفس ، وهدم أدلتهم ، وضرب بمعوله فى استدلالاتهم على — خلود النفس — فإنهارت وتهافتت ومع ذلك ، فقد كان هو مؤمنا بهذا الخلود .

إنه لم يلتزم فى هذا الكتاب « إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير فى وجه أدلتهم بما يبين تهافتهم » .

ومقصوده . . تنبيه من حسن اعتقاده ، فى الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان وجوه تهافتهم .

ويقول : « أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب منكر ، لا دخوع مدع ، مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه ، مقطوعاً بإلزامات مختلفة .

فالزمهم : تارة مذهب المعتزلة .

وأخرى : مذهب الكرامية .

وطورا : مذهب الواقفية .

ولا انتهض ذابا عن مذهب مخصوص .

ويقول الأستاذ « بلاسيوس » بحق « إن الغزالى حينما سمى كتابه « تهافت الفلاسفة » : كان يريد أن يمثل لنا ، أن العقل الإنسانى ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة ؛ انخدع به ، فرمى بنفسه عليه وتهافت فيه ؛ ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ، فيهلك كما يهلك البعوض .

فكأن الغزالى ، يريد أن يقول : إن الفلاسفة ، خدعوا بأشياء ، أسرعوا إليها بلا إعمال روية « فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدى [1] » .

— ٦ —

(والمعرفة) عند الفلاسفة العقليين . مصدرها ، إذن العقل ، والعقل

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده .

وحده ، بيد أن الإمام الغزالى ، يقول عن تجربة : إن وراء طور العقل ، طوراً آخر ، تنفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون فى المستقبل ، وأمور أخرى ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التميز عن إدراك المعقولات ؛ وكعزل قوة الحس عن إدراكات التميز [١] .

هناك إذن البصيرة ، وميدانها الذى ينكشف لها ، إنما هو الغيب .

وإذا تساءلنا ، مع الإمام الغزالى عن مراتب المعرفة بالغيب ، التى هى الإيمان ، فإننا نجده يحدد للإيمان ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى : « إيمان العوام » : وهو إيمان التقليد المحض .

المرتبة الثانية : « إيمان المتكلمين » : وهو ممزوج بنوع استدلال ؛ ودرجته حسبما يرى الإمام قريبة من درجة العوام .

والمرتبة الثالثة : « إيمان العارفين » : وهو المشاهد بنور اليقين .

ولا شأن لنا ، فى حديثنا هذا بالمرتبة الأولى ، أما المرتبة الثانية : وهى مرتبة المتكلمين ، وهم يدعون ، أنهم أهل الرأى والنظر ، وأرباب البحث والاستدلال ، فإنهم يشاركون الفلاسفة بهذا الاعتبار ، فى نهجهم البحثى .

فالإمام الغزالى ، يرى أن درجتهم قريبة من درجة العوام .

وهو من جانب آخر ، لا يرى فى نهج المتكلمين ما يؤدى ، إلى كشف الحقائق ، إنه يقول حرفياً عن علم الكلام : « أما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ماهى عليه ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف .

وهذا إذا سمعته من محدث ، أو حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، » .

---

(١) المنقذ من الضلال .

فاسمع هذا من خبير الكلام ، ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين،وجاوز ذلك إلى التعمق ، فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه المسدود[١].

ويرى فى موضع آخر ، أن المتكلم ، لايزيد عن العامى إلا فى صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته «كلاماً»[٢] .

أما المرتبة العليا : فإنها الهدف الأسمى وهى مقصد الطالبين ، ومطمح نظر الصديقين . إنها مشاهدة روحية ، إنها يقين مطلق .

مشاهدة ماذا ؟

ويقين فى ماذا ؟

ماهو الموضوع ؟

إنه إذا أردنا الإجمال : الغيب .

أما إذا أردنا شيئا من التفصيل ، فإنه أمور كثيرة ، كان يسمع العارف من قبل أسماءها : فيتوهم لها معان مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، حتى تحصل المعرفة ، الحقيقة بالله سبحانه .

وبصفاته الباقيات ، التامات ، وبأفعاله ، وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على على الدنيا .

والمعرفة بمعنى النبوة والنبى ، ومعنى الوحى ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة .

وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى إليهم .

والمعرفة بملكوت السموات والأرض .

---

(١) ص ١٦٨ من الإحياء .   (٢) إحياء ص ٨٧ .

ومعرفة القلب ، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فية ، ومعرفة الفرق بين لِمّة الملك ، ولمة الشيطان .

ومعرفة الآخرة ، والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط ، والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى : « وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحيوانْ لو كانو يعلمون » .

ومعنى لقاء الله عز وجل ، والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه ، والنزول فى جواره ومعنى حصول السعادة ، بموافقة الملأ الأعلى ، ومقارنة الملائكة والنبيين .

ومعنى تفاوت أهل الجنان ، حتى يرى بعضهم البعض ، كما يرى الكوكب الدّرّىّ فى السماء ....

إلى غير ذلك مما يطول تفصيله .

ذلك بعض موضوع الغيب الذى يتطلع إلى معرفته - دون جدوى - المتكلمون والفلاسفة ، ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح : اختلفوا فيه .

لقد اختلفوا فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى :

فبعضهم ، يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذى ، أعده الله لعباده الصالحين : « مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة ، وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها .

وكذلك يرى بعضهم ، أن منتهى معرفة الله عز وجل : الاعتراف بالعجز عن معرفته .

وبعضهم يدعى ، أمورا عظيمة فى المعرفة بالله عز وجل .

وبعضهم . يقول : حد معرفة الله عز وجل ، ما انتهى إليه اعتقاد

جميع العوام : وهو أنه موجود ، عالم ، قادر ، سميع ، بصير ، متكلم .

اختلف الناس هذا الاختلاف : لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح ، فى معرفة الغيب وهذا النهج الصحيح ، إنما هو جلاء البصيرة .

ولو اتبعوا الكشف ، عن البصيرة ، لارتفع الغطاء حتى تتضح للإنسان جلية الحق فى هذه الأمور اتضاحاً يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه .

وهذا ممكن فى جوهر الإنسان[1] .

— ٨ —

أهذا ممكن حقاً فى جوهر الإنسان ؟ .

إنها دعوى من الإمام الغزالى ، تحتاج إلى إثبات .

وهى دعوى ، ينكرها الكثيرون .

ولكن الإمام الغزالى ، يرى أن الدليل القاطع ، الذى لا يقدر أحد على جحده أمران .

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة : فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسوسات ، فكم من مستيقظ غائص ، لا يسمع ولا يبصر ، لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الغيب وأمور فى المستقبل .

وإذا جاز ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، جاز لغيره ؛ إذ النبى : عبارة عن شخص كوشف ، بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل

---

(١) المصدر . الإحياء ص ٣٥،٣٤ (٢) إحياء ص ١٣٨٩

أن يكون ، فى الوجود ، شخص مكاشف ، بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق وهذا لا يسمى « نبياً » بل يسمى « وليا » .

فمن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه ، لا محالة ، أن يقر بالبصيرة ، أو بتعبير آخر ، يقر بباب للقلب ، ينفتح على عالم الملكوت ، هو باب الإلهام ، والنفث فى الروع ، والوحى[1] .

والإمام الغزالى . يتشبث بالرؤيا ، كبرهان ، ودليل ، على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك فى كثير من كتبه ، إنه يتحدث فى « المنقذ » عن النبوة فيقول « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم ، انموذجا من خاصية النبوة ، وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ماسيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير .

وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه ، وقيل له :

إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب ، لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة ، أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة[2] .

ولكن الغزالى ، لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتى بشواهد الشرع ، ويذكر التجارب والحكايات .

أما الشواهد ، فيما يرى ، فهى قوله تعالى :

(والذينَ جاهَدوا فينا لَنَهدينَّهم سُبُلنا) .

---

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) المنقذ من الضلال .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم » .

وقوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) قيل نوراً يفرق به بين الحق ، والباطل ، ويخرج به من الشبهات .

وسئل ﷺ عن قول الله تعالى :

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » .

ما هذا الشرح ؟

فقال : هو التوسعة : إن النور ، إذا قُذف به فى القلب ، اتسع له الصدر وانشرح .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« إنَّ مِنْ أُمّتى مُحدَّثين ، ومعلَّمين ، ومُكلَّمين ، وإن عمر منهم » .

والمحدَّث هو الملهَم ، والملهم ، هو الذى انكشف له الحق ، فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسوسات الخارجية .

والقرآن مصرح ، بأن التقوى « مفتاح الهداية ، والكشف » .

ولم يكن علم الخضر عليه السلام ، علما حسياً أو عقليا ، وإنما هو العلم الربانى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

« وعَلَّمْنَاه مِنْ لَدُنَّا عِلما »[1] .

— ٩ —

كيف يتفجر ، العلم بالغيب من داخل القلب ؟

كيف تنجلى البصيرة ؟

---

(١) من الإحياء ص ٤١ — ٤٣ .

كيف يتأتى الكشف والإلهام ، والنفث في الروع ؟

كيف تتأتى معرفة الغيب ، معرفة مباشرة ؟

إن الطريق إلى ذلك ، إنما هو تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى .

ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى ؛ لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . فليس على العبد إلا الاستعداد ، بالتصفية المجردة وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء ، والأولياء ، انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب . بل بالزهد في الدنيا والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، (فمن كان لله كان الله له) ، وهو بفعله هذا يصير متعرضاً لنفحات رحمة الله .

وليس له اختيار في استجلاب هذه النفحات .

وليس له إلا الانتظار ، لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة .

وإذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، تلمع لوامع الحق في قلبه ، ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى : فينكشف له الغيب ، ويحصل له اليقين[1] .

---

(١) الإحياء ص ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ .

هذا النهج الذى رسمه الغزالى لمعرفة الغيب ، له آثار عميقة ، بالنسبة للفرد فى خاصية نفسه ، وبالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للدين .

وإنا لنختتم هذا البحث بتوضيح بعض الآثار التى كانت لهذا النهج ، والتى بينها الدكتور محمد إقبال فى كتابه : «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام» . يقول الدكتور إقبال :

« على أنه لا سبيل إلى إنكار : أن الدعوة التى نهض لها الغزالى تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد ، مثلها فى ذلك مثل الدعوة التى قام بها « كانت » فى ألمانيا فى القرن الثالث عشر :

ففى ألمانيا ظهر المذهب العقلى لأول عهده حليفاً للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسياً ، فكان الطريق الوحيد إذن : أن تمحى العقيدة الدينية من سجلّ المقدسات .

وقد جاء مع محو العقيدة مذهب المنفعة فى فلسفة الأخلاق ، ولذا مكن المذهب العقلى من سيادة الإلحاد .

تلك كانت الحال فى ألمانيا ، عندما ظهر « كانت » وكشف كتابه : « العقل الخالص » عن قصور العقل الإنسانى ، فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلى من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أجل نعم الله على وطنه .

وإن التشكك الفلسفى الذى اصطنعه الغزالى ، على تطرفه بعض الشىء قد انتهى الى النتيجة نفسها فى العالم الإسلامى اذا قضى ذلك على المذهب العقلى ، الذى كان موضع الزهو ، على الرغم من ضحالته ، وهو المذهب الذى سار فى نفس الاتجاه الذى اتجه اليه المذهب العقلى فى ألمانيا قبل ظهور

«كانت» غير . أن هناك فارقا هاما بين « الغزالى » و« كانت » ، فإن «كانت» تمشى مع مبادئه تمشيا لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنه .

أما الغزالى فعندما خاب رجاؤه فى الفكر التحليلى ، ولى وجهه شطر الرياضة الصوفيه ، وألفى فيها مكانا للدين قائما بنفسه .

وبهذه الطريقة ، وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلا عن العلم ، وعن الفلسفة الميتافيزيقية .

والله ولى التوفيق ؟

فهرس

سلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

أسماء الكتب التى ظهرت من هذه السلسلة :

١ — المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى (الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة)
مع مقدمة مستفيضة عن قضية التصوف — للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
رئيس قسم الفلسفة بجامعة الأزهر

٢ — فلسفة ابن طفيل، ورسالته «حى بن يقظان»
للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

٣ — الفيلسوف المفترى عليه «ابن رشد» — للأستاذ الدكتور محمود قاسم

٤ — التصوف عند ابن سينا — للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

٥ — التفكير الفلسفى فى الإسلام — للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

٦ — مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة لابن رشد — للأستاذ الدكتور محمود قاسم
مع مقدمة فى نقد مدارس علم الكلام

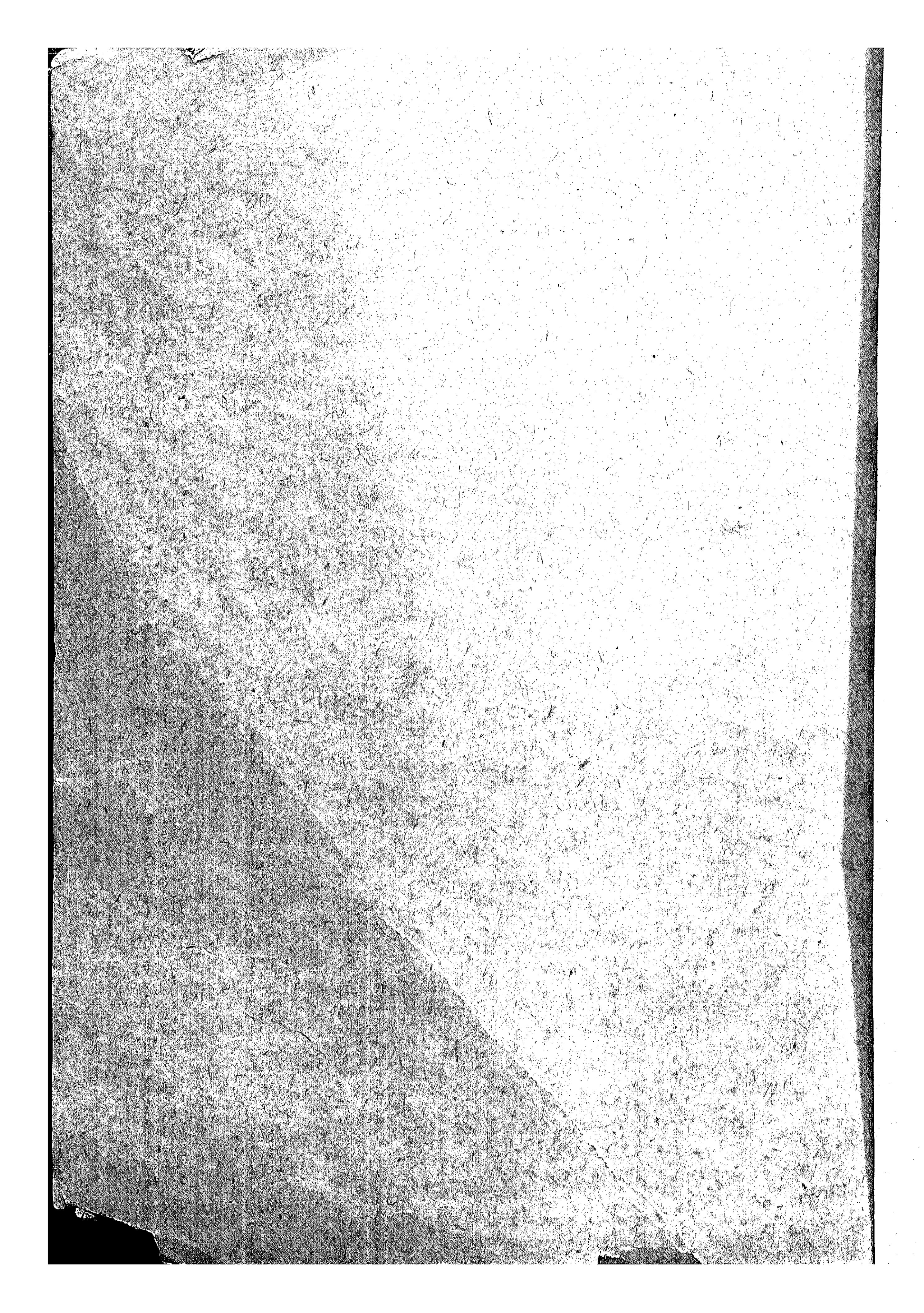
٧ — جمال الدين الأفغانى «حياته وفلسفته» — للأستاذ الدكتور محمود قاسم

٨ — الإسلام بين أمسه وغده — للأستاذ الدكتور محمود قاسم

٩ — كتاب الملل والنحل للإمام الشهرستانى
(القسم الأول) — تخريج الأستاذ محمد ابن فتح الله بدران

١٠ — كتاب الملل والنحل للإمام الشهرستانى
(القسم الثانى) — تخريج الأستاذ محمد ابن فتح الله بدران

١١ — أصول الفلسفة الاشراقية عند شهاب الدين السهروردى
للدكتور محمد على أبو ريان



مطبعة مخيمر ٢٩ شارع الجيش